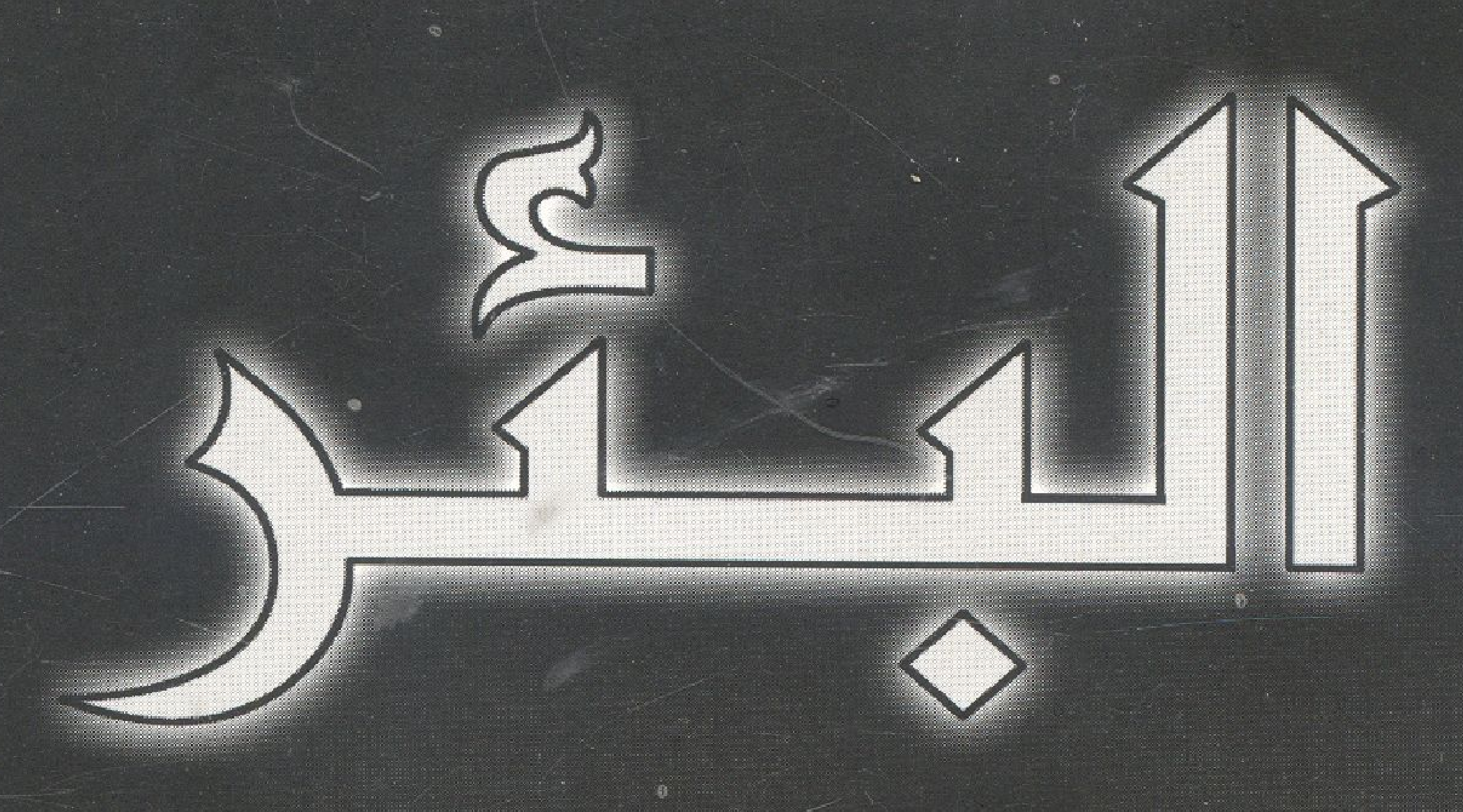
نجلاء محمود محرم









# البئر

روايـــة




- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات . والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الأراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها . ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

---



**مركز الحضارة العربية**

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

نجلاء محمود محرم

# البئر

رواية



الكتاب : البئر
رواية

الكاتب : نجلاء محمود محرم

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٢٣٨٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-426-3

الغلاف
تصميم الغلاف : طارق العوضى

الجمع والصف الإلكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : أحمد أمين
تصحيح : زكريا منتصر

# الفصل الأول

# المشهد الأول

كان القمر بدراً ..
يسقط ضوؤه على الأطلال فيضيء جانبًا منها ..
والأحجار المتناثرة ..
تبدو كأنها هرمٌ عتيق مبعثر ..
والسور الحجرى المحيط بالبئر يحميها فى حدب وحرص..
وبكرة منصوبة يديرها الناس فيتوالى خروج الدلاء المترعة بماء البئر .. يصبونها فى أكواب ودوارقَ وصفائحَ تحملها أيادٍ كثيرة ممتدة ..
صوت الماء يتناغم مع ضوء القمر الحالم ..

ومن بعيد ..
من " **صافورة** " .. ترتعش نقاط ضوء صفراء .. ربما لمصابيح كيروسين تهتز ذبالتها .. وحديث خافت تهمس به ألسنة كثيرة قد تجمع أصحابها حول بئر " صافورة " .. تختلط الكلمات والحروف .. تتداخل الأصوات والمعانى .. تتلاشى الفواصل والحدود .. وتبقى الهمهمات وضوء القمر وصوت المياه ..

على الأرض تمددت أجساد ..

كل جسد تحوطه جماعة .. وكل جماعة تحمل إناء مليئا بالماء .. يأخذون منه ويمسحون أجساد الراقدين .. يصبونه على الرءوس .. يشربونه .. يتطلعون لقمر "صافورة" الوضاء .. يتمتمون بأدعية وأوراد .. التعامل مع ماء البئر يتم بخشوع ومهابة .. هو طقس مقدس .. وضوء لا تعقبه صلاة .. قد يرتفع صوت :

" والنبي يارب ....... "

ويضيع باقي الدعاء في الفضاء المغمور بضوء القمر ..

يزداد الزحام حول البئر ..

تمتلئ الأرض بالحصر والملاءات المفروشة .. يتزايد تألق القمر ليسكب من النور ما يكفي الجميع .. يتعالى اللغط .. يتوالى قدوم المزيد من الناس .. تختفي الأحجار التي تشبه الهرم العتيق المبعثر تحت الأجساد التي استخدمتها كمتكآت ومقاعد وأسرة .. يحجب الزحام ضوء المصابيح الخافت الذى كان يبدو من بيوت " صافورة " .. يحتجب سور البئر .. ولا يظهر سوى الزحام .. وضوء القمر .. تحدوهما همهمات الناس .. وصوت الماء .. وأمل لا ينقطع فى أن تحل بركة ماء البئر وضوء القمر .. ليرجع الجميع مجبورى الخاطر ..

# المشهد الثاني

القمر بدرٌ..

والمنزل الحجري القديم قابع تحت الضوء البارد الصافي..

وبابه المفتوح تخرج منه امرأة سمينة ترتدي ثوبا صيفيا خفيفا وتربط رأسها بمنديل فاقع تحوطه ضفيرتان .. ضوء القمر يتألق على جبهتها العريضة ووجنتيها المكتنزتين .. تميل في خطوها يمنة ويسرة تحت وطأة استدارة جسدها وتكوره ..

بضعة رجال يحملون جسداً نحيلاً .. يقفون حين تخرج إليهم مترقبين توجيهاتها .. ينبعث صوتها متلألئا فتتألق ابتسامة كانت شاحبة على وجه القمر :

- أرقدوه على الحصير خلف الباب

* يا " ست شكور " .. دعينا نرقده في الغرفة كما أرقدناه في الشهر الماضي

في الشهر الماضي .. حملته نفس هذه الأيدي إلى نفس هذه الدار .. دار " شكور " .. في ليلة مقمرة كهذه الليلة .. بعد أن أُرقِد هناك بجوار البئر .. ومُسح جسده بالماء المبارك .. ولهجت ألسنة بدعوات لاهثة صاحبتها القلوب بالخشوع والرجاء ..

فى الشهر الماضى .. حُمِلَ إلى بيتها .. وضوّى القمر على جبهتها وهى تخرج لاستقباله .. وتَنَحّتْ عن الباب الذى سده جسمها السمين لتسمح لحامليه بإدخاله .. ومضت خلفهم ترشدهم :

* الحجرة اليمنى .. السرير أسفل النافذة .. ألف سلامة عليه ..

وأُرْقِدَ المريض .. وفى ضوء القمر ظهرت ملامحه الباهتة .. شاب صغير .. عشرون عاما أو أقل .. جفناه مواربان .. شفتاه جافتان منفرجتان .. وجنتاه خاسفتان .. جسمه الممصوص ينضح مرضا واستسلاما .. وتأوه خافت ينبعث منه بين حين وآخر ..

كان هذا فى الشهر الماضى .. فى ليلة قمرية صافية كهذه الليلة ..

* الحجرة هذا الشهر بها ثلاثة ياحاج .. "وعلى عينى نومته" خلف الباب ..

- ينام معهم ..

* وهل يصح ؟ هن حريم يا حاج !

- أى حريم وأى رجال ؟ هم جميعا كومة عظام !

* الشهر القادم - إن عشنا - سأجعلها من أجل خاطره "رجالى" !

- أوَسنأتى الشهر القادم أيضاً ؟

* لم تأتِ غير شهرين يا حاج ..

- لو أننا فقط وجدنا نتيجة ! !

في ضوء القمر جلس الجميع القرفصاء .. وظلال بيوت حجرية صغيرة كبيت " شكور " تستلقي على الأرض في وداعة .. ويفرش القمر مستطيلات نور مختلفة المساحات تتمدد إلى جوار مستطيلات الظل .. ثم لا تلبث أن تستحيل إلى أشكال ممطوطة ومائلة من الظل والضوء كلما ازداد انحدار القمر نحو الأفق .. ونسيم مرح يدور ويميل ويسرع ويبطئ مباهيا بحريته ..

الكل مجبرٌ على العودة ..

نضبت الجيوب .. واستنزف الأطباء كل ما اُدُخِرَ من قروش .. وتجرع المرضى أدوية لم يكن لها أثر سوى إفناء الدخول القليلة .. وبقي المرضى يعاقرون آلامهم .. وأُعيدَ تشكيل خريطة الأحلام .. واستُبْدِلَتْ بأسماء الأطباء بئرٌ ! بئرٌ يحوطها سور حجرى قديم ! واستبدلت بزجاجات الدواء جرعات ومسحات من ماء البئر المباركة !

* ستجد نتيجة بإذن الله .. البعض يأتى بدلا من الشهر عشرة .. والكل يعود مجبور الخاطر ..

- لست غريبة يا " ست شكور " .. الانتقال يكلفنا مبالغ تجهدنا .. عربة مخصوص من آخر الدنيا .. والطعام خارج الدار غالٍ .. غير المبيت والشاى .. وأنا لم ألجأ للبئر إلا بعد أن أنفقت كل مالدى .. ولم أعد أملك ما أدفعه للأطباء ..

زاد حنو الصوت المتلألئ الشفوق :

* لا تحمل هما ياحاج .. لن آخذ منك مليما.

- لم أقصد ذلك يا ....

* الخير كثير هذا الشهر .. والحجرة مشغولة بثلاثة مرة واحدة.. والونس مالئ الدار .. وأنا والله أسعى للصحبة أكثر مما أسعى للفلوس ..

**" لا تمنعي البركة عن أحد يا شكور يا بنتي .. النعمة من الله وليس لنا فيها شيء .. إن منعناها تزول والعياذ بالله "**

يالدفء الليالي القمرية !

ناس.. وأصوات.. وأبواب تُفْتَحُ وتقفل لثلاث ليالٍ كاملة .. ووَقْعُ خطوات يعزف نغم الونس والصحبة .. وحناجر تنطلق كل حين لتنادي: " ياست شكور ، ياست شكور " ! وإبريق شاى يبقبق دومًا على وابور جاز .. وملاعق تذيب السكر وتدغدغ الأكواب في شقاوة.. ورائحة طعام تنبعث مختلطة بروائح القرفة والحلبة.. ودجاجات سمان تذبح أعناقها لتختلط رائحة ريشها المنزوع بباقي روائح الحياة المنبعثة من الدار .. وشيئًا فشيئًا تتهذب الروائح كلما اقترب موعد الغداء.. " والست شكور " تروح وتجيء مشمرة عن ساعديها المكتنزين .. ويتردد صوتها المتلألئ العذب الودود في الآذان .. وتحمل القلوب عرفانا كلما سمعت جملة :

" من عيني " !

* ألم تتزوجي يا ست " شكور " ؟

- بلى ، تزوجت .. لكنه ذهب للحرب ....

**" لا تخافي يا شكور .. قليلون من لا يعودون من الحرب .. والكثير يعود "**

وكان " هو " من القليل الذى لم يعد ! تُرَى.. أى تراب ضم جسده؟ وهل كان عليه حنونًا مثلما كانت هى ؟

مرت تلك الأيام وانقضت .. حين كانت " شكور " تنتفض كالملدوغة كلما ضبطت نفسها متلبسة بالاستكانة بينما الحبيب ملقى هناك .. لا تدرى أين ؟ لاتدرى بماذا أحس حين جاء الأجل ؟ لا تدرى فيم فكر ؟ لا تدرى كم مَرَّ من الوقت وكم عانى من العذاب قبل أن يضمه الله إلى رحابه؟ تنتفض حيرة وهلعًا .. رفضًا وغضبا .. ونارٌ فى القلب تكوى .. ورغبة عارمة فى إيذاء النفس .. فى تحطيم أى شى .. فى التنفيس عن الصهد المدفون فى الجوانح .. راح السند والصدر الحنون والحضن الدافئ .. وتشق صرختها الفضاء الواسع حول " صافورة " لتناديه .. لكنها ـ أبدًا ـ لا تصل إليه .. ودائمًا يعود نداؤها مهزومًا مقهورًا .. ومرةً بعد مرةٍ .. هزيمة بعد هزيمةٍ .. يتهيب الصوت المنادى قبل أن يغادر حنجرتها .. وتنحسر مفردات الحزن المبعثرة خارج القلب .. وتعود لتدخله فى انكسار .. تسكن فيه .. تتحوصل .. تكمن .. وتصبح جزءا منها .. من : " شكور " .. التى كان لها ـ يومًا ـ حبيب !

* كثيرون راحوا فى الحرب .. شباب كالورد ..

- نعم . كالورد ..

هُيِّئَ للشيخ أنه سمع تهدجًا باكيًا في صوتها .. تأملها بعينيه الواهنتين في ضوء القمر المراوغ .. فلم يرَ إلا ابتسامتها تتلألأ على شفتيها الودودتين ..

" **انقضى وقت البكاء .. وجثم الوقت الذى لا ينقضى إلا بانقضاء العمر .. وقت المداراة واصطناع الراحة وادعاء النسيان .. ومجاراة الناس فى أحاديثهم ومسامراتهم ..** "

أخرجها أذان الفجر ـ الذى جاء نديًّا كأنما نزل عليه القَطْرُ ـ من أشجانها .. نشطت لحلول الفرصة لكى تؤدى عملاً .. مدت يدها خلف الباب وسحبت حصيرًا اصطف عليه البعض .. وتوارت هى داخل البيت بينما كان الإمام يردد :

* الله أكبر ..

## المشهد الثالث

الشمس تسطع ..

تسكب نارها على بئر " صافورة " ..

وتحت وطأة ضوئها المبهر تفقد الأطلال مهابتها !

فالأحجار .. التي كانت تبدو جليلة كهرم عتيق مبعثر .. صارت فوضى تنتقص من سموّ المكان .. والرمال في وهج الشمس تلوح جافة شديدة القسوة .. والسور الملتف حول البئر يبدو كأنه يخنقها !

مفردات رعناء لمشهد استفزازى سخيف !

الساحة خالية ..

كأنما سحب القمر معه أحباءه حين ذهب ..

المهابة والقدسية والخشوع والراحة .. كلها رحلت معه .. وصار كل شيء عاريا مجردا ..

الحجر أسفر عن حقيقته كجماد .. والرمل صرح أنه ضد الرى والإنبات .. والبئر تبدو جافة راكدة .. والسماء أعلنت سخطها على كل هذا المشهد ففتحت طاقات الحر لتحرقه بلهبها !

صمت تام صارم ثقيل .. يتواءم مع كل المفردات القاسية ..

ومن بعيد ..

تلوح بيوت " صافورة " . . ساكنة صامتة هى أيضا . .

ونخْلات قليلة لم يتح الظلام من قبل أن نلحظ وجودها . . واقفة كَمردةٍ تحرس ساحة القسوة . .

هى هى . . نفس البئر . .

وهى هى نفس الأرض . .

لكن . . حين تتم استدارة الوجه الحالم المضيء في السماء . . وتمتلئ ساحة البئر بالمريدين . . تنبض الحياة رقيقة لينة فى هذا الكيان الليلى . . وتتناغم همهمات الناس مع خرير المياه العذبة فيكثر الحب ويسود الرضا . .

تحت لهب شمس الصحراء الطاغية . . يُسْمع صوتٌ . . صوتٌ يتفق والمشهد النهارى الملتهب . . هدير آلة . . يزداد . . يقترب . . صيحات مستنكرة تكسر جو العزلة . . يقترب الهدير أكثر . . تزداد الصيحات ذبحًا للحناجر . . توشك الآلة أن تظهر حين يندفع الرجال نحو البئر . . يلتفون حول سورها الحجرى العتيق . . يتصببون عرقًا . . يتفجرون غضبًا . . الجرافة تمضى في سماجة والأكف تدق على جسمها . . تتمادى في التقدم . . يتمادون في الدق . . يندفع البعض أمامها . . يتمترسون ملوحين صائحين في قائدها :

* ماذا تفعل ؟

تتوقف أخيرًا . . يقفز شاب إلى داخلها ويمسك بتلابيب السائق :

* لن تتحرك خطوة ! والله العظيم أقطع رقبتك !

يقفز آخرون وراءه بينما يتجمهر الباقون حولها .. يصبون جام نظراتهم على سائق الجرافة .. يزعق شيخ مناديا آباء الشباب ليأخذوهم ويقصروا الشر .. تمتد أيد لتبعدهم عن السائق وهم ينزعونها عن أكتافهم في غضب .. تزداد ثورتهم كلما ازدادت محاولات إبعادهم ..

يظهر الضابط وعلى كتفيه النجوم تتوعد ! ينظر في صلف للشباب الثائرين الذين فاجأهم ظهوره فوقفوا مبهوتين يرددون نظراتهم بينه وبين سائق الجرافة الذى خرج صوته لأول مرة .. فشكى وبكى !

* خذوهم من هنا فورا ! وكل من ينوى أن يفعل مثلهم يعقل أحسن له ! لن أكرر كلامى مرة ثانية !

العساكر يتقاطرون .. يتراصون ـ بلا مبالاة ـ مشكلين دائرة حولهم ..

* ياحضرة الضابط نريد فقط أن نفهم !

قالها شيخ يذوب انكسارا .. يبتسم ابتسامة التضاؤل التى حُفرت على شفتيه .. وما عاد قادرا على أن يبتسم غيرها ..

* من رحمة ربنا عليكم أننى صبور ! سأفهمكم ! ولو أننى واثق من أنكم تفهمون فعلاً وتدّعون عدم الفهم .. لكن لابأس سأفهمكم ..

* الله يخليك يابنى .

يدعو الشيخ مستجديا رحمته !

* هذه الجرافة ( وأشار بيمناه ) ستردم هذه البئر ( وأشار بيسراه ) .. لأنها كما تعلمون بئر ملوثة بمياه الصرف الصحى .. ولاهى مباركة ولا غيره !

تموج الحشد .. لاح الغليان فيه ..

* الاستشفاء

* قطع الأرزاق

* منكم لله

* .....

* ....

تقاطعت الاعتراضات فلم تصل غير جمل مبتورة .. عم اللغط .. زادت حركة الغليان فى الحشد الذى كان قد سكن بظهور الضابط .. يقفز من الجرافة الشاب الذى كان قد أمسك بتلابيب السائق .. يندفع نحو الضابط فى قفزة نمر .. يتراجع الأخير مشيراً لعساكره .. يسرعون نحوه .. يمسكون به .. يتكاثرون عليه حين يوشك على الإفلات .. يطرحونه أرضا .. تدق أحذيتهم الغليظة جسده .. ترفس وجهه .. تصرخ امرأة ملتاثة :

* آه يا " **رفاعى** " ياابنى !

يجرها الأهالى بعيداً وصراخها يزداد عنفًا ..

- كله يخرس .. لن أحذر بعد الآن

يهدر صوته كجرافة تجتث حقهم فى الدفاع عن بئرهم ..

شبابٌ ينتفضون ليتخلصوا من الأيدى الكثيرة التى تحكم قبضتها عليهم لتنقذهم من غضب صاحب النجوم المتوعدة ..

والشيوخ يتقيئون حكمتهم ويناشدون الأهالى أن يهدءوا ويقصروا الشر ويخافوا عى عيالهم ..

الضابط يشير لجنوده فيهرولون .. وجوههم تقطر بؤساً .. ملابسهم متهدلة واسعة حائل لونها .. يصدعون لأوامره بحماس.. يتراجع الناس أمام هراواتهم .. ينقضون على من يرفض المغادرة .. يقبضون على أطواق جلابيبهم ويطوحونهم .. يجرُّونهم .. تشوب وجوههم مسحة من الرضا لقدرتهم على البطش بالضعفاء !!

تمتلئ سيارات " بوكس " بالرافضين وتجرى بهم إلى حيث لايدرى أحد .. ويجرى خلف السيارات آباء وأمهات وإخوة وأبناء يبحثون عن ذويهم .. وتهوى أكف على وجوه وأقفية .. وتُذْبَحُ نفوس كانت كريمة .. وتنطلق ألفاظ نابية .. وتظهر كدمات .. وتقطر دماء دفاعًا عن " أكل العيش " .. ويحتدم الأمر.. وتدوى طلقات .. وتنفجر قنابل تقرح العيون .. وتعوى سيارات إسعاف.. ويتفرق المتمردون ..

ضُرِبَ الحصار حول البئر ..

العساكر حاملو الدروع والهراوات .. شكلوا دائرة مركزها: سور حجرى عتيق تعلوه بكرة بدائية ..

والعربات التى حملت الرافضين فاغرة أفواهها تنتظر فى شماتة ترحيل المزيد منهم ..

دائرة العساكر ثابتة كأنها قدت من حجر .. لا يزحزحها شيء حتى ولاصوت الضابط الذى عاد للارتفاع :

- إياكم أن يطأ أحد هذه المنطقة.

يخرج غير مكترث بالتحيات العسكريات المباركات التى "ضربها" له ضباطه وجنوده ..

بمجرد انفلاته من الدائرة ينتاب الضُّبَّاط الأصغر سنًّا ورتبة إحساسٌ بالعظمة يتناسب طرديًّا مع كم البريق على أكتافهم .. يتركون التضاؤل الذى سيطر عليهم فى وجود قائدهم ويبدأون فى التحرك .. طواويس تتبختر فى كِبْرٍ .. تنظر بشموخ .. تتحدث فى أجهزة اللاسلكى ..

يصدرون أوامرهم فتنفتح دائرة الحصار قليلاً ..

يدخل بعض المدنيين العظام .. يفحصون المنطقة .. ينظرون فى ارتياب إلى بعض الأحجار .. يرمقون ذرات الهواء ! يمدون رءوسهم فى فوهة البئر .. يديرون البكرة ويملئون الدلو .. يتشممون المياه بتركيز ..

- كريهة

- وعكرة

- التلوث واضح بالعين المجردة .. لسنا - حتى - فى حاجة لتحليلها !

- لا ، هات عينة لنكتب التقرير .. اف ! رائحتها كريهة جداً !

الضابطان ينظران خلال النظارات المعظمة .. يقفان على الأحجار ويتطلعان نحو بيوت " صافورة " الرابضة هناك ..

يتجاهلان تعليقات المتزاحمين حول الدائرة :

- والله يا باشا البئر مباركة .. ذقها سيادتك

- أجيال وأجيال استشفت بماء البئر .. هل يَحْتَمِلُ المرضى شرب ماء المجارى ؟

محللا المياه مازالا ينظران إليها .. يضعانها فى زجاجات .. يرفعانها نحو الشمس وينظران فيها .. يلتفت أحدهما للآخر ويهزان رأسيهما قرفًا وأسى !

الزحام الذى استسلم بعد إقصاء قواده وشجعانه بدأ يمور من جديد فى أحد جوانبه .. ينشق فى هدوء .. يُسْمَعُ صوت امرأة :

* ابعد انت وهو .. أنا سأحدث حضرة الضابط .

- ارجعى يا " شكور " .. مالك والرجال ؟ " اختشى " عيب !

* " أختشى " ؟! هذا أكل عيشى .. لابد أن أحدث الضابط ..

- حدثناه كثيراً .. ولا مجال لحديث النساء !

انصرفت عنهم نحو مركز الدائرة وهى تمصمص بشفتيها .. بينما تطل عيناها الودودتان من فوق كتف أحد العساكر المتحلقين .. ينبسط وجهها بابتسامة وضاءة حين ترى الضابطين الشابين :

* بسم الله ماشاء الله .. خلقتما لتكونا ضابطين !

لا يملك الضابطان إلا الابتسام أمام ابتسامتها الرائعة .. يعتدلان .. يتأملانها وقد أطربهما الإطراء !

* سامحانى لجرأتى .. فأنا امرأة طويلة اللسان ! لكنكما فى عمر أبنائى !

تنظر للعسكرى بعينيها العذبتين وتدفعه برفق لتدخل للضابطين اللذين يشير أحدهما للعسكرى أن يدخلها .. فتدخل داعية لهم :

* ربنا يسعدكم يارب ! أتريدون شايًا ؟ سأعد لكم الشاى !

يفجؤها صوت أحد الضابطين المدوى :

- تأتين من آخر الدنيا وتثرثرين وتفسدين النظام لتصنعى شايًا ؟ هل نحن فى مقهى ؟ أم أنك بلهاء ؟

* نـ ... نعم .. مقهى ومطعم .. وفُرْ .. فُرْد .. فردق ! أليس اسمه : فُرْدُقًا ؟

يبتسم أحدهما :

- تقصدين فندقًا !

* سآتى لكم بالشاى .. فأنا لاعمل لى إلا ضيافة الوافدين إلى بئر " صافورة "

مازال الضابط العابس مستثقلاً وجودها :

- اذهبى يا حاجة .. لا نريد شايًا ..

قاطعته وابتسامتها المتسللة للقلوب لا تفارقها :

* لا مؤاخذة ياحضرة الضابط .. اسمى : " شكور " ولم يكتب الله لى الحج ..

- تحجين إن شاء الله !

يدعو لها وهو يتأملها فى فضول بينما العابس يرمقه بغيظ !

* لا أظن .. فالحج أصبح مكلفًا و ....

ينتبه حين يلكزه زميله ويؤنبه :

- وبعدُ يا " **محيى** " ؟ هل ستستمر فى هذا الحوار طويلا ؟
- دعنا نقطع الوقت حتى يصل الباقون ..
تفرك " شكور " يديها وتتسع ابتسامتها :
* أوَ ننتظر ضيوفا آخرين ؟ سأبشر الأهالى إذن .. فنحن لا نرتزق إلا فى الليالى القمرية فقط .. وعلى قروشها نعيش باقى الشهر .. لكن ربنا جعل الخير فى قدومكم نهاراً ..
" **يالك من خبيثة !** "
- ألا تعملون باقى أيام الشهر ؟
* فى الليالى القمرية فقط يأتى الناس للبئر .. ونؤجر منازلنا لهم لثلاث ليال .. وحين يرحلون تكون البيوت قد اطمأنت إلى ما يكفيها لباقى الشهر ..
- ولماذا لا تخرجون للعمل خارج " صافورة " ؟
* خرج البعض .. لكنهم سرعان ماعادوا .. ضاق الرزق وكثرت الأفواه .. وتقلصت فرص الكسب فى كل مكان .. بلدنا أولى بنا .. ونحن هنا والحمد لله مستورون .. فالبئر مباركة وتكفى كل من يسألها ! ومن يوم أن جاورها الناس وعمروا أرضها وهى تمنحهم الخير وتسترهم !
- وأنت يا " شكور " كيف تعيشين ؟
* أمتلك " فُرْدُقاَ " .
- تقصدين : فندقا !
* أقصد المكان الذى ينام فيه الغرباء .
- نعم .. اسمه : فُنْدُق .. لكن هل فى " صافورة " فنادق ؟

* ملآنة !

الدهشة تجذب العابس للمشاركة في الحديث :

- أليست " صافورة " هي تلك التي نراها هناك على مرمى البصر ؟

* بلى .. هي !

يعتلي حجراً كبيراً وينظر خلال نظارته المعظمة نحو "صافورة" ثم يحتج :

- أية فنادق ؟ ماهي إلا بيوت صحراوية حجرية !

* نعم ! بيوتنا !

- أين الفنادق إذن يا سيدة الأعمال ؟

* بيوتنا هي الفنادق .. نؤجرها للغرباء في الليالي القمرية ..

يتبادل الضابطان ابتسامتين .. إحداهما للإعجاب والأخرى للسخرية ..

- أوليس لكم عمل آخر غير الفنادق ؟

* لنا طبعا .. في أيام الضيافة نطبخ ونعد الشاي والحلبة والقرفة .. ونؤجر الحصر والملاءات .. ونملأ الأواني من البئر .. و . . .

- وماذا ستفعلون بعد أن نردم البئر ؟

* تردمون البئر ؟ !

دقت " شكور " على صدرها

- يالك من خبيثة ! أولم تعلمي أننا سنردمها ؟

* بلى .. علمت .. ولكنكم لم تكونوا تعلمون أهمية البئر لنا .. كنتم تظنونها مجرد بئر عادية ..

- نعم .. لم نكن نعلم .. لكن علمنا لن يغير شيئا !

* كيف ؟!

- نحن يا ست " شكور " لم نقرر ردم البئر .. القرار أصدرته جهات أخرى .. نحن فقط ننفذ .. ولا نستطيع ألا ننفذ !

استدعت " شكور " ابتسامتها الراجية التي كانت قد غاضت :

* لكنكما لن ترضيا بقطع عيشنا ..

- هذا ...

يتلعثم " محيى " فيرميه العابس بنظرة مغيظة .. ويقاطعه مثبتاً عينيه في عيني " شكور " :

- ولكننا سننفذ !

يقولها ببطء وهو يضغط على الحروف ويظهر أسنانه العلوية والسفلية معاً !

تنظر " شكور " للضابط " محيى " فيدير وجهه متحاشيا وقوع عينيه في عينيها ..

**" القتل الرحيم .. حرصًا على سلامة أهالى صافورة نقطع عيشهم ! حتى يموتوا جوعًا ! نعم .. لكي لا يجد المرض إليهم أى سبيل .. يالها من مهمة إنسانية ! "**

ينهض العابس متمتماً :

- اقترب موعد وصولهم.

يلتقط " محيى " عصا رفيعة ويأخذ في النقش على الرمال ..

تتابع " شكور " ما يدور حولها فى حيرة .. تجفل حين تتقدم أعداد هائلة من العساكر .. يخبطونها .. يدفعونها .. أصوات الأهالى ترتفع :

- ربنا هو المنتقم !

تدور " شكور " بين العساكر باحثة عن " محيى " ويدور هو باحثًا عنها.. صوت الجرافة يهدر ثانية .. يشير العابس فتتحرك جرافة ثانية.. ينخفض ذراعها ويَجْرِفُ الرمال متجها نحو البئر.. بينما تدور " شكور " باحثة عن " محيى " ..



# الفصل الثانى

# المشهد الأول

قبل الغروب بقليل ..

الشمس المتوارية خلف دار " شكور " تنشر عباءتها الحمراء في الأفق ..

والسماء القاتمة تنذر بليلة ظلماء ..

ونجم أرعن خرج دون حياء يتلألأ أمام سيدته التي لاتزال في أفقها لم تغب ..

وباب دار " شكور " تعبث به رياح موحشة فيَصِرُّ فتحًا وقفلاً ..

وكثير من الإهمال تراكم على النوافذ والجدران والأسطح .. بينما سكب القهر شعوراً ثقيلاً مريراً لاح في أعين كل من بقي فيها من أهلها .. وتردد في أصوات " شكور " وجارتيها الجالسات أمام الدار ..

* لو هجم اللصوص على " صافورة " لنهبوها في دقائق وهي خالية من ناسها هكذا !

- ماذا سينهبون؟ هل تظنين أن اللص سيأتي من آخر الدنيا ليسرق ملابسنا القديمة وخبزنا الجاف ؟

* ربما يا " زُهْرة " ! فاللصوص أيضًا منهم المحظوظ ومنهم المنحوس !

تتنهد ثالثتهم مبتسمة :

= الله " يجازيكى " يا " شكور " ! أما تزال لديك القدرة على الضحك ؟

تنقضّ " زهرة " ذات الوجه الكئيب والسحنة المقلوبة نافثة كدرها وسخطها .. تنقضّ كحدأة جائعة عثرت فجأة على "كتكوت" :

- وما يحزنها يا " نرجس " ؟ لم يكن لها أحد لتحزن على غربته وفراقه !

**" لم يكن لى أحد ؟!**

**كيف لم يكن لى أحد وقد كان وجهه مضيئًا كالقمر ؟**

**كنتُ نورَ عينيه وكان أهلى وعزوتى .. لم يطلنى عوز ولا كرب وهو معى .. كل همٍّ يحمله عنى .. كل حزن يهونه على ..**

**لكنه راح !**

**وقَبْلَكُنْ جميعا ذُقْتُ عذاب الفراق .. تجرعت مرارته قطرة قطرة .. وحيدة لا أحد يشعر بمصيبتى ..**

**البرد يسكن كل ركن فى الدار .. بردٌ يفتُّ عظامى ..**

**والصمت لا يترك لى أى فرصة للانشغال بسواه ونسيانه ..**

**والناس سرعان ما انفضوا .. ونسوا .. جرفتهم حياتهم فما عاد أحد يقول : ربنا يعوض عليكى يا شكور !**

**وحدى .. تأكل النار قلبى ..**

**لماذا راح ؟ ولماذا أحرم من دفنه ؟ لماذا أحرم من زيارة قبره ؟**

**كنت سأذهب إليه .. وأفضفض .. وكان سيسمعني ! كان قادراً على أن يحس بي حتى ولو كان في قبره !**

**قالوا : فُقِدَ .. وقالوا : أُسِرَ .. وقالوا : مات !**

**وقلت : أنتظر .. ربما .. ربما ماذا ؟ لست أدرى ! "**

عاودت " زهرة " لدغها :

- قلبها خال ! تعيش بطولها ! على من تحزن ؟

قالتها وهي تقلب سحنتها أكثر وأكثر .. وتعقد ما بين حاجبيها وتمد كفيها متسائلة .. ثم تخبط ظهر يسراها ببطن يمناها في غل ! لم تلحظ شرود " شكور " .. فهي دائما لاتلحظ إلا ما يثيرها ويغضبها .. وتتجاهل كل ما قد يرضيها أو يهدئها !

* ربنا أكرمني يا " زهرة " ! وها هو قد أكرمك كما أكرمني !

- تشمتين بي يا " شكور " ؟ هل جننت ؟

* أشمت بمن وكلنا منقوعون في الهم ؟ ! يا " زهرة " يااختي حلي عقدة النكد .. فكيها !

= هل سنتبارى فيمن منا الأكثر همًّا ؟

تقولها " نرجس " وهي تجمع أطراف أناملها وتهز كفها "لشكور" راجية إياها أن تترفق و" تفوّت " .. فتقول " شكور " :

* الحمد لله على كل شيء .. نحن أحسن من غيرنا .. ارمِ الهم يا " زهرة " يرميك ..

- أرميه ؟ معذورة ! تحجر قلبك وماعدت تحسين قسوة انقطاع

صوت زوجك وغربة ولدك والعيش مقهورة دمعك على خدك لا يجف !

* تاني يا " زهرة " ؟ هل «انْهَبَلْتِ» ؟ ادعى لهما أن يرزقهما ويوسع عليهما ويردهما سالمين.

- هل ستعلمينني الحنان يا ام قلب خال ؟

اندفعت " نرجس " التي كانت - من قبل - تطالب " شكور " بالتروى :

= دعيها يا " شكور " .. لن تتعلم .. هل هناك أكثر مما جرى لها لترتدع عما هي فيه ؟

- أعرف ما تقصدين ! لكن زوجي في يدى كالخاتم !

= حين يكون لديك خاتم !

تقولها " نرجس " ضاحكة وهي تقبض متوددة مسترضية على ساعد " زهرة " وتميل برأسها على كتفها مداعبة .. لكنها ترفض دعابتها .. وتهب في غضب تاركة إياهما .. تشوط في طريقها حصى وتعفر رمالاً ..

" يعيرنني بك ! يا ناكر الجميل !

تفر مني ؟ أنت .. تفر مني ؟ رحم الله يوم جئتنا أول مرة !

ما كنت تحلم بدار كدارنا .. ولا بعزوة كعزوتنا .. يوم وافق أبى عليك لم تنقطع دموع أمي .. قالت له : أتعطيها للشيال ؟ فرد عليها مشيرا إلىّ : انظرى لوجهها لتعرفى قيمتها !

زين لك أن تخطبنى ..

**قال لأمي : احمدى ربنا أن وجدنا من يزيح كربنا !**

**سمعته بأذنيَّ هاتين .. وقلت في نفسي مع الشيال قد تكون الحياة أرحم .. على الأقل سيقدر منزلتي ومالي ..**

**لكنك .. أف .. كان يومًا أسود ! "**

تدخل دارها .. تبرطم .. تلعن اليوم الذى رأت فيه وجوههن ووجهه .. تخبط أبوابًا وتوقع صحونًا !

ثم تعود في اليوم التالي لمجلسهن على استحياء .. تقترب ممن شاجرتهن بالأمس وترمقهن بوجل وتَرَقُّب .. هل سيرفضونها ؟ ويأتيها صوت " شكور " :

* تعالي يا " زهرة "

وتسرع في خطوات قصيرة وقد علت فمَها ابتسامةٌ تستغرب نفسها على هاتين الشفتين ! تخطو في اضطراب .. وعادة ما تتعثر في طرف الحصير أو تدوس على يد إحدى الجالسات في خراقة .. تجلس راضية في البداية .. لكنها تجدهن يلخبطن ويسئن الفهم ! وتلاحظ أنهن يتعمدن إغاظتها .. وأحيانا تتركز نظراتها على شامة في خد إحداهن .. أو خصلة شعر تهدلت فوق جبين أخرى .. فيتصاعد داخلها بخار الحنق وسرعان ما ينطلق من فمها .. لتجد نفسها تشاكس صاحبة الشامة وتناكدها .. وتحاول الأخريات إثناءها .. فتلمح فيهن مزيداً من الأشياء التى تثيرها أكثر .. ولا مفر من الغضب والانسحاب المندفع الساخط !

بعد انصراف " زهرة " .. تصمت " شكور" و" نرجس" ..

تجتـران ذكـريات قـديمة .. تتـأمـلان " صـافـورة " التى مـاعـاد القـمـر يُحْيِيها .. والتى صار هلالها يمتلئ ويستدير حتى يكتمل بدرًا وتمر لياليه الثلاث دون حدوث طقس استشفائى واحد ..

أقمـار كثيرة اكتملت وتناقصت ولم ينتبه أحد إليها .. ما عاد الناس يسـألون عن ظهـور الهـلال .. وغـرة الشـهر .. رغم أن القـمـر مازال حُلْوًا كما كـان .. وديعًا ودودًا .. لـم يتغير .. لماذا إذن تغير ماء البئر ؟

= حين يأتى الرجل والأولاد سيحضرون النول معهم ..

* إنهم لم يسألوا – بعد – عن ثمنه ..

= أهى مشكلة يا " شكور " ؟ سيسألون ويعرفون ويشترونه.

* ثم نبحث عـمن يعلمنا .. وعـمن يبيع لنا الصوف .. وعـمن يشترى منا الأكلمة .. و ....

تقاطعها " نرجس " متظاهرة بالذعر :

= بسم الله الرحمن الرحيم ! أما زالت " زهرة " معنا ؟

* " سرها باتع " !

= سنتعلم إن شاء الله .. وستُفْرَج .. المهم أن تكفى النقود ..

* قولى لى : هل حقًا سيتزوج زوج " زهرة " ؟

= هذا ما يقوله ولدها " رفاعى "

* مسكينة يا " زهرة " !

= لن يزداد نكدها عما هى فيه !

**" البعيد عن العين بعيد عن القلب .. وإذا كان زوج زهرة معذوراً .. أليس من الممكن أن يفعلها الآخرون بدون عذر ؟ بعيدون هم .. لا أحد يعرف عنهم شيئًا .. ولا أحد يدرى ماذا يفعلون ولا بمن يلتقون .. وسيدارى بعضهم على بعض .. ونحن هنا نائمون على آذاننا .. وحين تقع الفأس فى الرأس نقول ليتنا ما تركناهم ! "**

- خالة " شكور " .. خالة " شكور "

زقزقات حلوة تنادى .. وفتيات ثلاث يتطايرن نحو الذراعين المفتوحتين .. ويرتمين فى حضن " شكور " الدافئ .. يتعانقن بحب واشتياق كعادتهن حتى لو التقيْن فى اليوم عشر مرات ..

- جاءك ضيف يا خالة ؟

* ضيف ؟ !

تساءلت " شكور " باستغراب .. هى أبداً لم يأتها ضيوف .. ليس لها أحد ليجيئها زائرا !

يظهر الضابط " محيى " من خلف الدار .. يبدو أصغر سنًا فى ملابسه المدنية .. تهب " شكور " واقفة بأقصى سرعة يتيحها لها وزنها الثقيل .. حين تقف تظهر تجعدات ثوبها التى تكاثفت لطول الجلوس .. تسرع مادة كفها وهى تتمايل بجسدها السمين النشيط :

* يا ألف أهلاً وسهلاً

- كيف حالك ؟

* الحمد لله .. خيراً ؟

- خيرٌ إن شاء الله .. ما جئت إلا للاطمئنان عليك !

يأتلق الود فى عينيها .. ياكرم الله .. أخيراً جاد عليها الزمن بمن يسأل عنها .. ومن ؟ ضابط كالقمر !

* الله يسعدك .. أنا بخير .

لا تدرى لِمَ اجتاحتها رغبة فى البكاء ؟

عينا " نرجس " تتفحصان الضيف بفضول وهما مترعتان بالدهشة من كل شيء فيه .. ملابسه .. ملامحه .. لهجته .. وخاصة من إقدامه على تلك الزيارة .. من أين عرفت " شكور " - المقطوعة من شجرة - هذا الشاب ؟

* سلمى على حضرة الضابط يا " نرجس " ..

" **ضابط ؟! أيكون هو ؟ أيكون هو الذى ...؟** "

- الحمد لله أنكما بخير ؟

* ما زلنا نحيا رغم ردم البئر .

" **آهٍ منك يا قاطع الأرزاق .. جاء ليطمئن علينا ! الله الله ! يقتل القتيل ويمشى فى جنازته** "

أطلقت " نرجس " صوتها الموبخ :

- " صافورة " خربت وانقطع خيرها !

هذا الواقف أمامها يدعى البراءة هو الذى طمَر أرزاقهم وشتت شملهم ثم جاء ليطمئن عليهم !

" **كان يوماً أسود يوم رأينا وجهك !** "

تتحرج " شكور " حين تقرأ أفكار " نرجس " :

* خرج الناس وراء رزقهم يا نرجس

= كان رزقهم بين أيديهم ! الله يجازى .....

تقاطعها " شكور " قابضة على ذراعها :

* أبواب الرزق كثيرة .. ربنا يفتح عليهم ..

- وكيف تعيشين يا " ست شكور " ؟

* كنت أدخر مبلغاً أعطيته لزوج " نرجس " ليتاجر فيه .. وما يفتح به الله عليه نتقاسمه سوياً ..

- أى نوع من التجارة ؟

* محافظ وأمشاط وجلود بطاقات وإبر

تستأنف " نرجس " توبيخها :

= ربنا جعل فى قضاه رحمة .. لانسأل غيره !

تلكزها " شكور " فى جنبها !

* سأعد لك لقمة من الموجود ثم تستريح قليلاً .. ماأطول المسافة التى قطعتها لتأتى إلينا !

يلمح الضابط أصابع " نرجس " التى تقرص ذراع " شكور " مستنكرة استضافتها لقاطع الأرزاق ومفرق الجماعات ..

- لا لا .. سأنصرف الآن ما دمت قد اطمأننت عليكم .. الحمد لله أنكم بخير.

* فرصة ياابنى لأفتح " الفردق " !

قالتها وهى تربت على صدره مبتسمة .. مدّ يده فى جيبه وأخرج مظروفا قدمه إليها .. أعادت يده الممدودة وقد عاودتها نفس الرغبة فى البكاء ..

- لا تردى يدى !

* مستورة يا حبيبى .. مستورة !

انتبهت " نرجس " لصوت " شكور " الباكى .. انصرفت عن الضابط إلى صديقتها .. أحاطت كتفيها بذراعها .. التقطت نظرات الود التى تملأ عينيها فرقَّتْ مشاعرُها .. لم تلتفت نحو الضابط .. ظلت تتأمل عينى صديقتها المندّاتين وتتجنب النظر إليه ..

- طول الطريق وأنا أسأل نفسى : هل ياترى سأجدك هنا أم ستكونين قد رحلت مع الراحلين ؟

برطمت " نرجس " دون أن تلتفت إليه :

= كأنك قلقت على حالنا بعد أن ردمت البئر !

* ولدى " رفاعى " مثلك .. يخشى دوماً أن أكون قد رحلت ..

- ألك أبناء ياخالة " شكور " ؟

* كأنه ولدى .. ما أشد الشبه بينكما !

رمقته " نرجس " بحذر .. هو فعلاً يشبه " رفاعى " .. نفس الطول والعرض والسن والسمرة .. ونفس الهم فى عينيه ! تمتمت بحروف متداخلة :

= اجلس !

ابتسم الضابط لدعوتها المقتضبة :

- اشتقتما لنشاطكما القديم ؟

* فرصة يا ولدى .. منذ ردم البئر تعطلت كل " الفرادق " .. حتى العساكر المرابطون حول البئر يأتيهم طعامهم وشرابهم

من بعيد بالسيارة ولا يَدَعُونا نقدم لهم كوب شاى ولا حتى شربة ماء ..

لكن .. لماذا لم يرحلوا وقد ردموا البئر وانتهى الأمر ؟

- يخشون أن تعيدوا حفرها .

* الناس رحلوا .. خافوا على أبنائهم فزينوا لهم الرحيل .. ما كان لهم سوى هذه البئر قوتًا وزادًا .. فلما راحت راحوا !

- هذا أفضل .. حتى لا تعرضوا أنفسكم للأذى ..

* هيا يا " نرجس " لنعد لقمة لحضرة الضابط

- لا لا .. سأشرب الشاى فقط ..

* لكن ....

- لن أستطيع .. يكفينى الشاى

جرَتْ " شكور " صديقتها من يدها .. وانسحبتا إلى الدار لِتُعدًا الشاى سويًا .. وحين توارتا .. انصرف " محيى " بهدوء بعد أن وضع شيئًا على عتبة الدار ..

# المشهد الثانى

نفس الجولة اليومية ..

" شكور " تتمشى فى طرقات " صافورة " .. تعاينها .. تتفحصها .. تسقى أشجاراً عريقة زرعها السابقون ورعوها .. تحتفى بوجوه قليلة قد تتمكن من الابتسام لها قبل أن تتوارى خلف نافذة أو وراء باب .. وجوه كانت تضىء عتبات الدور وجنبات الحارات فى زمن الصفاء الذى رحل ..

ابتسمت للغراب الناعق على قمة الشجرة العجوز .. أحست تجاهه بالعرفان لأنه بقى فى عشه .. ولأنه مازال ينعق نعيقه الذى صار فى أذنيها شدواً .. وما زال " يحجل حَجْله " الذى كانت - صغيرة - تقضى مع رفيقاتها ساعات حلوة يقلدنه ويتهكمن عليه ..

تستجدى ذكريات حلوة لزمان ولى !

حين رحلوا .. بقيت هى ..

بقيت مع كل من لم يستطع ترك " صافورة " ..

وكيف تتركها ؟

كيف وهى لم تعرف لنفسها وطنا إلاّها ؟

كيف وهنا دار أبيها الذى جاء حاملاً إياها والحليب مازال يبلل شفتيها الرقيقتين .. مصطحباً أمها العليلة .. آملا أن تحل عليهم بركة بئر " صافورة " .. وحين حلت البركة وشفيت الأم أقسم لا يغادرنَّ أرض " صافورة " التى منحته خيرها وبركتها .. وعاش مجاوراً لبئرها .. يتحسس سورها الحجرى كأنما يمسح وجنة وحيدته " شكور " .. ينفطر قلبه إذا تخلخل حجر منه .. وبسرعة يرده إلى مكانه ويحشو الفراغات حوله " بالمونة " .. يقبع طوال نهاره وليله حارسًا البئر .. والأولاد العفاريت يحومون هنا وهناك .. يتحينون الفرصة لإلقاء أى شيء فيها .. فرع شجرة .. زلطة .. حفنة رمل .. أى شيء .. فقط ليصيحوا :

= الْحَقْ يا عم أبو شكور.

وينتفض عم أبو شكور غاضبًا .. ساخطًا .. وحين " يلحق " بأحدهم يمسكه من كتفيه وينحنى ناظراً إلى عينيه :

– أهكذا ؟ تقذف نعمة ربنا بالرمل ؟

ويصمت قليلاً مثبتًا عينيه فى عينى العفريت الصغير ثم يطوح ذقنه فى وجهه :

– امش !

عندها يصيح الصغار وتعلو ضحكاتهم .. فقد جاء المشهد مطابقًا تماماً لكل المشاهد السابقة .. وقيلت كلمة الختام بنفس الطريقة التى كانوا يتوقعونها ! وحين ينصرفون باحثين عن ملهاة جديدة .. يسرع أبو" شكور " للبئر .. يتدلى فيها حتى يكتنفه

خطر السقوط .. يفتح عينيه لأقصى ما يمكنه علّه يستطيع أن يرى ما ألقاه العيال في جوفها .. يُنْزِلُ الدلو ويسحبه ويتأمل الماء .. يتشممه .. يملأ به كفه ويريقه متفحصًا .. ثم يعود ليقبع على مقربة منها متيقظًا !

أحيانا .. كانت " شكور " تشارك الأطفال شقاوتهم ومشاكستهم لأبيها .. لكنها سرعان ما تتعاطف معه حين ترى فزعه وقلقه على البئر .. وتشعر بالاستياء من نفسها .. فتعود لتكمن بجواره .. يسألها :

- كنت معهم يا " شكور " ؟

تومىء برأسها ناظرة للأرض .. فتأتيها كلماته :

- حرام يابنتي .. نعمة ربنا !

كيف تتنازل " شكور " عن نعمة ربنا ؟

كيف ترتحل إلى البلاد الأخرى التي لم ترها أبدا ؟

كيف ستتحدث مع الآخرين ؟

وهل من الممكن أن تستيقظ فلا تطالعها جدران بيتها هذه ؟

وهناك .. إذا أرادت الخروج من مأواها .. أين ستسير ولمن ستذهب وكيف ستعود ؟ ستتوه قدماها إذا وطئتا أرضا غير هذى الأرض !

تحس نفسها حفنةً من تراب " صافورة " .. إذا تطاير بعضها ستحمل الريح لها - من الأرض الطيبة - بعضا آخر لتكتمل حفنة من جديد .. لكن إذا ذهبت مثل الذاهبين .. وتطاير بعضها .. من

أين ستأتي الريح ببعض آخر ؟ هناك .. لن تكتمل .. لن تكون هى "شكور" .. ستصبح واحدة أخرى .. غريبة شائهة .. واحدة فيها شيء من " شكور " وليس فيها أشياء كثيرة منها .. أشياء تساقطت وضاعت في طريق لا يجب أن تمشيه ..

حارات " صافورة " الضيقة الملتوية .. اصطبغت بلون شاحب غريب .. وكسيت جدرانها أحزانًا وآلامًا .. وأصبح من النادر أن يُسْمع فيها صوت أو ينعقد فيها مجلس سمر .. توارى الذين لم يرحلوا فى بيوتهم وانطفأ غرامهم بالوصال والتجمع .. وكأن البئر أخذت فى جوفها مرحهم وسعادتهم !

مصمصت " شكور " بشفتيها وهي تعبر عتبة الدار الرحبة .. دار " نرجس " .. رفيقة الطفولة والصبا والشباب والكهولة .. كم كان مرحهما طفلتين حلواً عذبًا ! وكم كان إحساسها " بشكور " وبكل ما يخص " شكور " مرهفًا صادقًا ! أيام بطولها تنقضى وهما معا فى دار " نرجس " .. أعمامها صاروا أعمام " شكور " .. وأخوالها صاروا أخوال " شكور " وجدها وجدتها وأبناء عمومتها وأبناء خئولتها .. أفسحوا لها مكانًا فى القربى .. وارتاحت "شكور" لدفء اللَّمة وهيبة العزوة لديهم ..

تهمس لأبيها :

* ما أسعد " نرجس " بعائلتها الكبيرة !

فيحكى الأب :

- عائلة " نرجس " هنا منذ زمن طويل .. فى البداية جاء جدها الكبير بمفرده .. تاه فى الأراضى الصفراء التى ليس لها أول ولا آخر .. وبعد أن انقطع أمله فى النجاة لاحَتْ له البئر .. أحيته وصَدَّتْ عنه الموتَ الذى كان قد فتح شدقيه ليلتهمه .. ومنحته القدرة على مواصلة البحث عن طريقه .. وحين عرف طريقه .. بنى داره التى ترينها هناك .. وتزوج .. وأتى بعروسه إلى جوار البئر .. وأنجب .. ومرت السنوات وكبر صغاره وأصبح لهم أبناء.. ثم صار للأبناء أبناء .. وكبرت العائلة وظهرت بجوار البئر بلدة صغيرة عرفها الناس باسم الجد الكبير " صَفَر " .. وعاشوا فى خدمة البئر التى منحتهم خيرها وبركتها .. لا يمنعون ماءها عمن يطلبه ويفتحون بيوتهم لكل وافد يلتمس الشفاء ..

بعيدة تلك الأيام !

وبعيد هو اليوم الذى غادرت فيه " نرجس " أرض أبيها وجدها وجد جدها .. ليس بعيداً بقدر ما مر بعده من أيام .. لكنه بعيد بقدر ما لحقه من هموم جثمت على القلب لتؤيسه من الحلم فى عودة ما كان !

رحلت " نرجس " .. جرَب الرحيل بعضٌ من رجال عائلتها ثم عادوا ليَقْطُروا الجميع إلى حيث وجدوا لأنفسهم مأوى وملاذاً ولقمة عيش ..

**" * تتركين دارك يا " نرجس " ؟**

**= أكل العيش مر ! والعيال يكبلوننا يا " شكور " !**

*** والدار ؟**

**= البركة فيكِ .. ارعيها واحرصي عليها مادُمْتِ قد رفضت الرحيل معنا ! فقد نعود إليها يوما !"**

وحاولت " شكور " أن تصون الأمانة .. وأن ترعى دارًا تركها أهلها سعيًا وراء لقمة العيش .. تذهب إليها كل يوم .. تجوس في جنباتها .. ترتقي سطحها .. تنظر إلى حوائطها وهي حائرة :

كيف تكون رعاية الدور المهجورة ؟

من فوق سطح دار " نرجس " تطلعت " شكور " بعيدًا نحو البئر .. صنعت بكفها حاجزًا يحجز الشمس عن عينيها ودققت :

**" ما للمنطقة قد فقدت ملامحها ؟ أين الأطلال المحيطة بالبئر ؟ كنا نراها من هنا .. أيكونون قد أزالوها حين اكتشفوا ضررها هي الأخرى ؟ "**

أنَّتْ السلالم المصنوعة من شق الشجر تحت وطأة وزن "شكور" .. وحين انتهى أنينها كانت " شكور " تخرج ساهمة من باب الدار ..

**" قد يختلط الأمر على الناس ويظنون الخبث طيبًا .. البئر كانت طيبة .. كنا نظنها طيبة .. لكنها لم تكن كذلك .. كانت مخلوطة بمياه الصرف الصحي ! سبحان الله ! مياهها الرائقة السائغة العذبة كانت نجسة ! الأساتذة فحصوها وأكدوا خبثها ! ما**

**نظنه دواء ربما يكون هو الداء .. لكنني .. لكنني أحبك يا بئر صافورة ! "**

في مدخل دارها القريبة من دار " نرجس " جلست " شكور " أمام النول الذى تركته لها صديقتها حين رحلت .. قائلة :

= شيء ترتزقين منه .

وكل عدة أسابيع يشترى لها " رفاعى " بثمن الأكلمة التى يكون قد استطاع بيعها خيوطًا وأصباغًا وخزين طعام قد لا يكفيها حتى عودته القادمة .. يلقى حمله عندها .. يتنشق عبير أرضه فيها .. يسألها أن تقص عليه ما كان من أيام "صافورة" .. وتكمش أمه " زهرة " لترتوى روحها اليابسة بذكرى الماضى الندى ..

* كنت أضيق بوحدتى فى دار أبى .. أستأذنه لأذهب إلى "نرجس" .. تبهجنى الوجوه الكثيرة هناك .. والأصوات المتداخلة .. والصحبة الدائمة .. أجرى فى الدار الرحبة وألعب وأضحك .. ثم أتذكر دارنا الضيقة .. وصرير بابها المشقوق .. فأشتاق لأبى الجالس فيها وحيدًا .. يتطاير احتفائى بما لدى نرجس .. أقطع المسافة حتى دارنا وأنا ألوم نفسى .. وأصل .. وأجد أبى فى مكانه أمام الدار يتطلع للبئر .. ينبهه وقع خطواتى لعودتى فتملأ الابتسامة وجهه الطيب .. يمسح الحصير بكفه مزيلا عنه الغبار لأجلس بجواره .. يضمنى بساعده فأكتشف أن دارنا وصمت أبى وبابنا المشقوق أحلى ألف مرة مما لدى نرجس !

تنصت " زهرة " لذكريات " شكور " .. وسرعان ما تملأ حدقتيها الدموع .. هي أيضاً لها نفس الذكريات لكن لسانها لا يسعفها بالحكي .. قلبها المشتعل انفعالاً على الدوام مترع بالحنين والذكرى والألم والمرارة التي لم تحسن يوماً البوح بها .. تلوذ بالصمت .. تطبق جوانحها على عذاباتها وتصمت .. حتى يفيض كيل الاحتمال فتثور .. ويقول الجميع : " زهرة نكدية " ! وتبقى وحدها " شكور " تحتمل ثوراتها .. وتفسح لها مكاناً بجوارها .. وتكف الأخريات عنها .. وتقول :

* لو رأيتم قلبها ما غضبتم منها !

يتطبب " رفاعي " بالذكريات .. وحين تسكن آلام الغربة التي تنهشه يعود ليغترب من جديد .. وتثور أمه وهي تودعه .. وتؤنبه على تخليه عنها .. وتتخوف من عدم عودته .. فتستأنف "شكور" مداواة الجراح :

* حين كنت أعود من عند نرجس .. كان أبي ينظر إلى عيني مبتسماً ويقول : لابد وأن يعود الإنسان إلى داره !

أمام النول جلست " شكور " تدفع الخيوط بالفرشاة لتتقارب وتتلاصق .. وهي تدندن :

**" ياقمرنا ياوش الخير**

**اضوِ ولالى فى قلب البير "**

صغيرة .. كانت تغني مع أطفال " صافورة " للبئر والقمر ..

وكان الراحل فتى حلوا كالقمر .. يبتسم لها وهو يدير البكرة رافعا الدلو المملوء بالماء المبارك ..

كانت طفلة ..

لكنها كانت " تستحي " من ابتسامته فتورد وجنتاها وينخفض صوتها المغنى .. وتهدأ خطواتها .. وينسدل جفناها على عينيها السوداوين .. بينما تجذبها كفوف صويحباتها للجرى .. فتجرى .. وفي قلبها .. في قلب قلبها يختبئ السر .. إنها تحب نظرات الفتي المضيء كالقمر !

ظل الصغار يغنون حول البئر .. ثم توالت الأقمار العجاف .. وتوالى الرحيل وعم الأسى .. ترى كم بقى في جعبة السماء من الأقمار العجاف التي تطلقها كل شهر في ليل " صافورة " .. فلا تجلب زواراً ولا تملأ جيوباً ؟!

نهضت " شكور " عن النول .. وقفت بعتبة دارها تتأمل الهمَّ الجاثم على " صافورة " .. خطت للخارج خطوة .. عاودتها ذكرى ابتسامة الفتى الحلو كالقمر .. استندت بظهرها للحائط وهبطت جالسة بينما كانت دموع متلألئة تتجمع في عينيها ..

# الفصل الثالث

# المشهد الأول

ضُحَى يوم دافئ ..

تطل شمسه المترفقة على بئر " صافورة " ..

عمالٌ يحملون الجواريف والمعاول والطوب ومواد البناء ..

وهو .. جالس يتأملهم .. على وجهه علامات ضيق وتبرم .. ينكش الرمال بمسطرة طويلة .. ثم يعود ليتأملهم مرة أخرى

**" كأنهم نفس العمال الذين حفروا هذه البئر القديمة منذ عشرات المئات من السنين ! "**

يتململ فى جلسته على الحجر الكبير الرابض فى ساحة البئر .. تنتاب شفتيه ارتعاشة استياء .. تتركز نظراته على البانين والهادمين ..

**" ما الذى يشغلهم غير الأجور العجاف التى قد تبقيهم شبعانين بضعة أيام ؟ "**

ترتفع أيدٍ وتهوى بكل قوتها .. فتتشرب الأطلال حبات عرق هادميها كما تشربت من قبل عرق بناتها .. وأيدٍ أخرى تبنى سورا شاذًا طويلاً متعرجًا ..

**" أحسن الطرق لطمس معالم لوحة وإهدار معناها .. هو**

**تقطيعها إلى شرائح .. ثم بعثرة الشرائح ! هل خطر ببالهم أن يفكروا فى أصل هذه الأطلال ؟ فى تاريخ البشر ؟ فى سبب بناء هذا السور ؟ الهادمون لا يفكرون إلا فى الهدم والبانون لايفكرون إلا فى البناء والرادمون وأصحاب الخوذات والمهندسون .. كل لا يرى إلا دوره .. ألا يعيدون تجميع اللوحة شريحة بعد شريحة وخطًا بعد خط ؟ "**

ينهض .. تزداد تقطيبته وتتضح خلجة الاستياء على شفتيه أكثر .. يضع يديه في وسطه ويرمق العمال .. صبره يكاد ينفد ..

**" لابد من إتمام بناء السور اليوم لأفرغ من هذه المهمة البغيضة "**

- اسمع يا " **على** " .. ستكون مشكلة إذا لم يكتمل السور اليوم .. تصرف !

التفت " عليٌ " نحو زميله بحدة .. لسعه صوته المرتعش المتهدج .. ازدادت اختلاجة شفتيه .. أوشك على الكلام لكنه أحجم .. وأدار وجهه ..

- ليس هذا وقت خصام ! دعك من غضب الأطفال ! اليوم لابد وأن تنتهي من السور !

**" العمال يعملون .. عشرات العمال يعملون .. والسور يبتعد .. ويبتعد .. ويبتعد .. ويأخذ كل يوم مزيدًا من الأرض فى داخله .. فى البداية وعلى الورق .. كان مجرد دائرة حول البئر لا يزيد قطرها عن خمسين مترًا .. دائرة ليس لها دورٌ إلا منع الناس عن البئر " الفاسدة " .. وظلت الدائرة تتسع .. وتتسع .. وتنهب**

**المزيد من الأرض فى داخلها .. ثم لم تعد دائرة ! انبعجت من جانب وتحدبت من جانب وظهرت لها أذرع وزوايا .. والعمال يلهثون وراء هذا التمدد الملعون .. يحددونه بسور لا تُعرف له نهاية .. كلما بنوا جزءاً منه يطول جزء أكبر .. والدائرة الشيطانية لا تكف عن الاتساع حتى تماست فى بعض أجزائها مع بيوت " صافورة " !**

= سيذكر التاريخ يا " **برهان** " أننى من بناة سور " صافورة " غير العظيم !

" **أخيراً نطقت ياعلى !** "

انقشعت الكآبة عن وجه " برهان " .. فمنذ أن وقَّعَ بالموافقة و"على " لا يحدثه .. هذه هى المرة الأولى .. أسابيع كاملة يعملان معاً دون أن يوجه له كلمة .. غضب عليه .. خاصمه كما يتخاصم الأطفال .. بنفس الرعونة والوضوح .. لايرد تحيته ولا يحضر مجلساً هو فيه .. لم ينقصهما إلا أن يلوى أحدهما خنصره على خنصر الآخر ليعلنا إبرام القطيعة !

- اعذرنى يا " على "

= حاولت .. ولم أستطع !

- الأوراق كانت سليمة .. وكلها كانت تؤكد أن البئر ملوثة !

= وكنت تعلم أنها ليست كذلك !

- ماذا كان بيدى ؟

= ترفض التوقيع .

- غيرى كان سيوقع.

= فليفعلها غيرك وتصون أنت شرفك !

- كلامك جارح يا " على "

= أنت من جرح نفسه !

- افهمني يا "على" .. أهل "صافورة" كانوا سيتشردون سواء بتوقيعى أو بتوقيع غيرى .. التغير الوحيد الذى كان سيحدث إذا لم أوقع هو اضطهادى فى عملى .. وخسارتى لم تكن لتُرْبِحَ أهل "صافورة" أى ربح ..

= هى حجة المفرط الخالدة : إذا لم أفرط أنا سيفرط غيرى ! نتجاهل أن طبائع الناس تختلف.. وأن هناك من يفر وهناك أيضًا من يَثْبُت.. نُعَمِّمُ الأحكام وكأننا قد اطلعنا على مكنونات الصدور.

- قليل من يستطيع الرفض !

= وكثير من يرتزق بالتفريط يا " برهان " !

- ماذا تعنى ؟

= أعنى مكافأة الموافقة على الردم ومكافأة إعادة الحفر !

- أخذتُ كما أخذ كل العاملين بالمشروع .. وأنت منهم .. لم تكن رشوة !

= لكنك كنت تعلم - من البداية - أن البئر صالحة .. وتعلم الآن أن البئر الأثرية التى " ستكتشفونها " هى نفسها بئر " صافورة " القديمة التى ردمتموها !

- وأنت أيضًا كنت تعلم ! لا تتظاهر الآن بالبطولة .. لقد اكتفيت كالعادة بالاستنكار الكلامى .. وأنت تعلم تمامًا أنه

تصرف عقيم ! خاصمتني .. وتركتني لا أسمع إلا صوت نفسي .. لست وحدك الذى صُدِمَ فى صديقه .. أنا أيضا صدمتُ فيك .. كنت أظن أن حقيقتك مثل كلامك .. وأنك ستجرؤ على المواجهة والتصدى .. انتظرتُ أن أستمد من شجاعتك قدرة على الرفض .. لكنك كالعادة كنت شيطانًا أخرس !

= توقيعك أجهض كل نية للتصدى

– ماذا تريد الآن يا " على " ؟

= أبحث عن بقايا صديق كان !

– ما أروع تعبيراتك !

قالها " برهان " متهكمًا ثم التفت للبنائين .. تأملهم لحظات قبل أن يغادر المكان وهو يتابع من ركن عينيه " عليًا " الذى أخذ ينقش الرمال بمسطرة بينما وجهه يتفجر كمدا ..

**" لا توقع يا برهان .. فكر فى البسطاء الذين سيتشردون .. أنت قادر على منع الكارثة .. حاول على الأقل ألا تسهل لهم هذا العمل .. أنت المسئول ورأيك له ثقله "**

لكن " برهان " وقَّع .. ثم وقَّع .. ثم وقَّع !

وكلما زادت توقيعاته .. كلما ازداد تمدد السور أكثر وأكثر .. وكلما دخلت فى جوفه مساحات جديدة من أرض " صافورة " .. فخزان المياه الجوفية ـ المحملة بالمعادن والأملاح المعالجة للأمراض ـ ممتدٌّ تحت الأرض .. والسور يجب أن يحدد أبعاده بدقة .. لا يجب أن تُتْرك للناس فى الخارج فرصة لحفر بئر جديدة .. تمدد السور

حتى لاصق بيوت " صافورة " .. وصار يغازلها ليبلعها فى جوفه .. وصار من اليسير على أهلها أن يمرقوا خلاله إذا ما خطوا خطوات قليلة أمام بيوتهم !

وهاهى " شكور " قد تمكنت أن تمرق خلاله بعد أن تراخى الحصار حول البئر يوماً بعد يوم .. تلفتت حولها مستطلعةً متحيرةً مستنكرةً المكان .. تنبهت لوجود " على " فاطمأنت نظراتها القلقة .. اقتربت منه ..

* يا ألف أهلاً وسهلاً

أجفل " على " وهَبَّ واقفًا

= من ؟

* " شكور " يا أستاذ ..

= " شكور " من ؟ من أين أتيتِ ؟

* من منزلى .. هنا .. وراء السور !

رفَّتْ ابتسامة غريبة على فمه :

= أتعيشين هنا ؟

* هذه بلدى .. وهذا بيتى وراء السور ..

= نحن هنا منذ أسبوع ولم نرَ أحداً .. ظننا البلدة مهجورة .. خالية ..

* مهجورة : نعم .. فقد هجرها البعض .. لكن خالية : لا !

= إذن لم ترحلوا جميعا ؟

* كثيرون رحلوا .. وكثيرون أيضاً لم يرحلوا ! هل تريدون شاياً ؟

= سنسقيك نحن الشاى.

* كنت أريد أن أعد لكم الشاى !

= إذن نحن فى انتظار شايك !

توارت " شكور " خارجة وقد خفَّتْ خطواتها كعادتها حين تهتدى لعمل تؤديه .. وعاود " على " الجلوس وما زالت الابتسامة الغريبة تعلو شفتيه ..

وعاد " برهان " .. رمق السور الذى مازال بعيداً عن الاكتمال

- سنبدأ فى حفر البئر يا " على " حتى ولو لم يكتمل السور .. لن نستطيع التأخر أكثر من ذلك !

= لماذا تحبذ إتمام السور قبل البدء فى الحفر ؟

رمقه " برهان " بعتاب :

- هل أنت مُصِرٌّ على أن نتصادم ؟

= لا لا .. أريد أن أعرف حقًا !

تأمله " برهان " بارتياب قبل أن يجيبه على مضض :

- ألا تعلم أننا سوف نغير معالم المنطقة .. وسنعيد حفر نفس البئر التى سبق ردمها ؟

= إذن لابد من انتظار إتمام السور !

- لمَ ؟

دخلت " شكور " تحمل الشاى وقد اصطحبت معها " زهرة " التى تعثرت فى حجر .. أشار " على " نحوهما وهمس فى أذن برهان بشماتة :

= هذا هو الجواب !

# المشهد الثانى

في ضوء القمر ..

وعلى حصير مفروش أمام بيت " شكور " يجلس الضابط " محيى " والمهندس " على " .. يسندان ظهريهما إلى السور الذى اكتمل .. وأحكم حصاره للأرض المحيطة ببئر " صافورة " .. والذى ترتفع من حافته أعمدة حديدية عملاقة .. تسكب كشافاتُها العالية ضوءاً وقحًا على الساحة المحيطة بالبئر .. فتبدو كأنها حفرة من حفر جهنم المتلظية سكنت ظلام " صافورة " الوادع ..

يسندان ظهريهما للسور الشائه .. ويمدان سوقهما فتكاد أقدامهما تمس جدران بيت " شكور " المفتوح بابه .. والذى تفوح منه رائحة طعام ..

بينما القمر يطل فى وجوم على البئر التى أعيد حفرها .. ينظر إلى وجهه فى مائها فيزداد وجومًا حين لايجد ابتسامته .. يتذكر حين كان يغتسل فى هذا الماء فيقطر من السماء صفاء !

تخرج " شكور " ـ من دارها ـ حاملة صينية متسعة .. ينشط الجالسان لاستقبال الطعام .. يمد " على " يديه ويتناول الصينية بينما يدخل " محيى " الدار ويعود حاملاً قلة يلمع سطحها

المبتل .. يجلسون حول الطعام ..

* هذا السور حجب الهواء .. في الماضي كان الفضاء ممتدا ولم يكن هناك ما يحجز نسيم الليل ..

= ربما يهدمون السور يوماً .

* وتصبح بيوتنا ضمن المشروع يا باشمهندس ؟

=ربما !

* حتى بيوتنا ستصبح ضمن مشروعهم ؟

وخز الأسى الناضح من كلمات " شكور " قلبيهما .. تبادلا نظرات مرتبكة ..

= ألا تريدين أن يزول هذا الحاجز بينك وبين البئر ؟

* أريد .. لكنني لا أريد أن يلتهم السور بيتي !

لحظات صمت تمر وهي تثبت نظراتها على السور ..

شيء في القلب ينتفض .. ومرارة القهر تملأ كل خلاياها .. ماذا كان بيدها ؟ هي .. " شكور " .. المسالمة الوديعة .. ماذا كان بيدها ؟

سلبوها رزقها وقُوتها ..

ضيعوا ناسها ..

مرَّروا حياتها ..

ولم تعترض !

ظنت أنها أضعف من أن تعترض !

وحين بدأ أبناء " صافورة " في الرحيل عنها .. رفضت أن ترحل معهم ! وبقيت مع غيرها من المستضعفين الذين لم يأتمنوا على

أنفسهم أرضا غير هذه الأرض .. خافوا من مواجهة المجهول خارجها.. بقيت .. لا لتواجه الجرافات والخوذات والنجوم اللامعة فوق الأكتاف .. وإنما لأنها ظنت نفسها أضعف من أن تغير مسار حياتها .. ظلت بجوار مواطن الذكريات الحبيبة .. وقبلت العيش بجوار الوافدين الجدد وقالت : ستستوعبني الحياة !

وحتى حين بدأ السور يتسع ويلتهم الفضاء أمامها لم تفكر في أن تترجم حزنها إلى أي شيء آخر غير الحزن ! ومثلها كان كل الذين بقوا في " صافورة " .. حزنوا .. ولم يقدروا على شيء أكثر من أن يحزنوا !

لكن" صافورة " ضاقت عليها !

انغلق فضاؤها المترامي ولم يعد مباحا لعينيها ولا لقدميها إلا الأزقة الضيقة والحارات المسدودة ..

فغر المشروع فاه وابتلع أرض الحب والصحبة ..

ينتفض القلب الآن ؟

يفور بداخلها الشوق للبئر ؟

تتوق لشربة ماء مباركة ؟

تشعر برغبة في تحطيم السور والارتماء في البراح المكسو بضوء القمر ؟

ألم تشهد - وهي صامتة - ضياع كل هذا ؟

لماذا تتولد - الآن - بداخلها القوة والجرأة والرغبة في الرفض ؟

* داري لن تدخل ضمن مشروعهم يا باشمهندس !

= لا تخافى يا " ست شكور " ما هى إلا دردشة كلام !
* ولا حتى دردشة كلام !

في يوم فات ..
ضمن ما فات من أيام ..
طرق باب هذه الدار نفسها فتى مضيء كالقمر .. قال له أبوها :
– بنتي لن تتركني .. إن شئت زواجها ستقيم أنت هنا !
وحايل الفتى أهله .. واغتاظت أمه .. وكررت كلماتها اللاذعة :
ـ جرجرتك البنت وراءها !
وكانت كلماتها ـ التى تهدف لتجريحه واستثارة عناده ـ تقع في نفسه موقعًا جميلاً !
" **نعم جرجرتني ! وما أحلى ما أنا فيه !** "

كانت " شكور " صبية تغنى مع الصبايا للقمر والبئر .. وكان الفتى نضرا ضحوكًا .. جاء بصحبة مريض يستشفى .. أحبها فأحب من أجل عينيها " صافورة " وبئرها وقمرها وأهلها .. وصار يعود كل شهر في ليالي القمر .. وأفسح له أهل " صافورة " مكانًا في القلب كواحد من أبنائهم .. ينام في دُورهم .. يطعم من طعامهم .. يساعدهم في الضيافة ..
ينتظر الليالي القمرية ليجرى إليها .. وهي تروغ منه .. تستعذب وتستنكر دقات قلبها وتورد خديها حين تراه .. تندهش

لإحجامها عن الطعام في ليالي القمر .. يتكثف إحساسها بأنوثتها .. تشعر بنفسها فتاة أخرى .. نظراته تحيي فيها ما لم تكن تعلم أنه فيها .. لم يخف منه أهل " صافورة " على ابنتهم .. باركوه حتى استكانت عروساً بين ذراعيه في هذه الدار .. تعلمت منه كيف تحبه .. وكانت تلميذة نابهة ..

قبل رحيله قالت :

* أخاف عليك منهم !

فترقرقت الدموع في عينيه كعادته حين يفيض به العشق .. أوصته على نفسه وظلت تتابعه حتى حجبته المسافة عن ناظريها !

ظل يروح ويجيء ..

اعتادت سفره وعودته .. لكنها أبداً لم تستطع ترويض نفسها على اعتياد تعرضه للخطر .. سألته عنهم .. عن أولئك الذين يترصدونه يريدون الفتك به .. فحكى لها عن عيونهم الماكرة .. عن بشرتهم الباردة .. قال :

- ستعرفينهم إذا رأيتهم .. سيخبرك قلبك !

وسألت نفسها : كيف أراهم وهم هناك .. بعيدون كل البعد عني .. وأنا هنا في بلدي ؟

ظل الفتى المضيء يروح ويجيء .. يروح ويجيء .. إلى أن راح......

**" لابد وأن يعود المرء إلى داره يا شكور "**

= سيفتتحون المنتجع بعد أسابيع ..

- لم أصدق نفسي حين رأيعه اليوم .. فقد مضت شهور منذ أن زرت " الست شكور " بعد ردم البئر .. ولم يكن هناك حتى هذا السور .. متى استطاعوا أن يتموا كل هذه الإنشاءات ؟

تململت " شكور " في مكانها وأشرقت شفتيها بابتسامتها المتسللة للقلوب ..

* ما هذا " المنتجع " الذى تتحدثان عنه ؟

= المشروع .. هذا المشروع وراء السور يسمى : منتجع.

* وماذا يفعل الناس بالمنتجع ؟

= يستريحون ويتريضون ويهدِّئون أعصابهم .. ويدفعون نقوداً !

**" يحولون بيننا وبين بئرنا .. ويتوه الأهل فى شقوق الدنيا .. ليأتي الناس من كل بلاد الله ليستريحوا ؟ يُتْعبون أنفسهم بالسفر والترحال ليستريحوا ؟ أين كانوا يستريحون من قبل ؟ ولماذا لا يبقون في بيوتهم ويستريحون فيها ؟ "**

* ألا يأتون للاستشفاء والعلاج ؟

= بلى .. يأتون .. هذا هو الأساس .. لكن إلى جانب العلاج توجد سينما وملاعب وملاهى ومتاجر ومسرح وفندق !

تاهت " شكور " فى معاني الكلمات الغريبة التى سمعتها .. لكنها انتعشت لوقع الكلمة الأخيرة :

* فندق ؟ أيوجد فندق ؟

تدخل " محيى " :

- يوجد فندق .. لكن " فردقك " هذا أحسن منه مائة مرة !

**" يأتون بجيوبهم المنتفخة ليتداووا ببئر الفقراء ؟ كيف تمنحهم البئر بركتها ؟ كيف يسكب القمر عليهم قدسيته ونوره الطاهر بعد أن سلبوا الفقراء دواءهم وبئرهم وبعثروهم في بلاد الدنيا ؟ لكن أين البئر ؟ أين بئرنا ؟ أسِنَتْ مياهها لما أحست بمجيئهم .. فردموها .. وحفروا لأنفسهم بئراً كأى بئر أخرى .. لم يباركها مرور نبي ولم يرعها عارف بالله "**

* أنا لا أحب ما وراء السور يابنى !!

= ألا تحبين بئركم المباركة ؟

* لم تعد بئرنا .. أصبحت بئر الآخرين الذين يسافرون ويرتحلون لكى يرتاحوا .. لم تعد بئر الذين انقطع عيشهم وتفرقوا في البلاد يبحثون لأنفسهم عن ملاذ ولقمة عيش .. أصبحت بئر الذين جاءوا لنخرج نحن ..

= بل بئركم !

* بئرنا ردموها ..

**" بئس التوقيع توقيعك يا برهان ! "**

= البئر هى هى يا ست "شكور" ! أعادوا حفرها بعد أن ردموها !

* لا يابنى .. لقد حفروا بئراً جديدة .

= كما أقول لك .. البئر هى نفس البئر !

**" هى نفس البشر ؟ لماذا إذن كان ما كان ؟ لماذا تشرد أهل صافورة ومضوا تلطمهم الدنيا في كل أرض ينزلون بها؟ لماذا أُغْلِقَ أمامهم باب الرزق واسْتُكْثِرَ عليهم خيرهم ؟ وهل كان هؤلاء الذين يسافرون ويرتحلون ليرتاحوا .. في حاجة إلى بئر الفقراء ؟"**

نهضت " شكور " في هدوء .. انسحبت إلى داخل بيتها .. همس " محيى " " لعلىّ " :

- ما هذا الذى قلته ؟ ماذا ستجنى من تعذيبها هكذا ؟

= يجب ألا يوقع أحد بعد الآن !

- أى توقيع ؟ " شكور " لا تعرف الكتابة والقراءة !

= كلنا نوقع يا " محيى " ! بالقلم نوَقّع .. بالخوف نوقّع .. بالشفقة نوقّع .. بالطمع .. بالجبن .. وحتى بالصمت نوقّع !

## المشهد الثالث

الليلة ظلماء ..

والسماء السوداء تغمز بعيونها النجمية الساخرة ..

والقمر المحاق يتوارى في جوف الكون ..

وفي سكون وجمود تجلس أشباحٌ ثلاثة .. تتبادل النظرات العمياءَ في ليلة معتمة .. فلا ترى إلا سواد الليل وعتمة الملامح .. وتُفْشِي القلوب السر المخبوء :

إنهم جميعًا يدركون الفخ الذى وقعوا فيه .. يلعقون العلقم الجارى في العروق .. يفهمون ويعانون .. ويذوبون عذابًا وندمًا .. يفرون بنظراتهم خشية أن ترى ما لا تحب أن تراه في وجوه الأهل ! لكن قلوبهم - رغم الليالى السوداء المظلمة - ترصد الآلام المحفورة على الوجوه !

" شكور " و " زهرة " وولدها البكر : " رفاعى " ..

" رفاعى " .. الذى تلقته " شكور " - وليدا - على يديها .. فحملته ودارت تضمه في حضنها وتقول للنسوة الحاضرات :

* انظرن ! هو أول فرحتى !

الثلاثة جالسون على الحصير صامتون .. ينتظرون أن ينكسر

قيد الحرج الذى ألجم ألسنتهم .. ينتفض " رفاعى " :

– لا أستطيع أن أتخيل ما قلته يا خالة " شكور "

أمسكت " شكور " بمعصمه لتجلسه ثانية .. ورمقت السور بعينين رافضتين

**" ما فائدة الانتفاض والغضب ونحن هنا وهم هناك وهذا السور قائم بيننا وبينهم ؟ "**

لكنه انتزع معصمه .. خطا حتى لاصق السور .. ركن جبهته عليه ودق بقبضته المضمومة طوبه الصلد .. ظل يروح ويجيء كسبع حبيس ..

**" كيف تواطأ كل هؤلاء لخداعنا ؟ "**

* ناديه يا " زهرة " !

لكن " زهرة " أيضًا لا تستجيب لـ " شكور " !

كيف تستجيب وقد غادرها وعيها هاربًا إلى أيام فاتت وانقضت ؟

أيام كان " رفاعى " يتولى حراسة البئر .. وكانت هى تزهو على الناس بمكانة ولدها .. وتشمخ بأنفها على رُوَّاد " صافورة " .. وتنتظر من الجميع أن يُكْبِرَها ويوقرها .. فهى أم " رفاعى " الذى يسهر الليل بجوار بئر " صافورة " حين يتوارى القمر محاقًا فى جوف الكون .. يهش عنها هوام الليل وشياطين الظلام السابحة فى العتمة .. يغطى فوهتها بخيمته إذا ثارت الرياح ويبقى هو فى العراء يستقبل لفحات الرمال العاصفة بظهره .. وفى النهار يروح ويجيء طائمًا حولها متفقدًا أمرها .. طاردًا العيال العفاريت إذا لاحت فى وجوههم نبضات الشقاوة و" العفرتة " ! يفحص

سورها . . يغسل دلاءها . . يصون بَكَرَتَها . . يأتي بفسيلة صغيرة ويزرعها بجوارها . . وتسأله أمه ساخطة :

= ماذا ستفعل تلك النبتة يا فالح ؟

- ستكبر . . وحين تكبر ستحمى البئر وتظللها . .

= حين تكبر ؟ وهل سيتركها العيال المعجونون بماء العفاريت حتى تكبر ؟

- سأحرسها يا أمي .

= اهجر بيتك إذن وأقم بجوارها . . اسكن هناك ليل نهار . . ليس وراءنا إلا شجيرتك !

ويرعى " رفاعى " شجيرته . . ويُعَلِّمُ العيال العفاريت حبها . . يحافظون عليها . . يحرصون - إذا اقتربوا من البئر - ألا تطأ أقدامهم الصغيرة حوضها . . ينتزعون الحشائش والأعشاب التى تتقصد غذاءها وقُوتَها . . يتسابقون لنيل رضا العم " رفاعى " ليسمح لهم بريِّها بماء البئر وبإصلاح حوضها وتقويم عودها . . وتنمو الشجيرة . . ويسميها الناس : " شجرة رفاعى " !

وتظل " زهرة " الساخطة . . ساخطة منها ! ويناكدها زوجها :

- غاضبة أنت لأن الناس تحب " شجرة رفاعى " أكثر مما تحب " أم رفاعى " !

فيتملكها الحنق . . وتثور . . وتُطيِّرُ إساءاتها للجميع وللشجرة ! وتقسم أن تقتلعها . . وأبداً لا تقتلعها . . لأنها :

" شجرة رفاعى " !

**" علام كانت الثورة والغضب ؟ وفيم كان الحزن ؟ وما هذا الذى يعتصر قلبي الآن إذا كان ذلك الذى كنت أشعر به بالأمس هو الحزن ؟ ليتك يا أيام تعودين وأسهر معك يارفاعى عند البئر .. أحرسها .. وأسقى شجيرتك .. وأرتوى بصحبة الأحباب والخلان.. وأشعر فى داخلي بالقوة والقدرة .. وأقتات الإحساس بالعزوة والمنعة .. الأهل حولي والبئر تحت يدى .. وولدى حارسها.. لكنك ضعت يا بئر صافورة وضاع معك ناسك ! "**

= هل تظنين يا " شكور " أن " شجرة رفاعى " مازالت قائمة بجوار البئر ؟

**" ماذا يمنعهم من اقتلاعها وقد اقتلعونا نحن ؟ ماذا يمنعهم من اقتلاعها وهم لم يسقوها يومًا ولم يسندوها بحجر ولم يستمتعوا بظلها ولم تُسَمَّ باسم حبيب من أحبائهم ؟ ماذا يمنعهم من فِعْلِ أى شىء ماداموا لم يحبوا أى شىء ؟ "**

تنهض " شكور " .. تتجه نحو " رفاعى " الذى جلس مستنداً للسور واضعا رأسه بين كفيه .. تضع يدها على كتفه .. يرفع نحوها عينين جامدتين .. يطالعها بوجه متجهم عبوس لم تره من قبل .. يهمس بصوت مختنق :

– كنت حارسها يا خالة " شكور " !

* مثل أبى .. أحببت البئر مثله .. ورعيتها مثله .. و.....

– لم أرعها .. خطفوها من بين يدى لأننى كنت حارسا خائبا !

خدعوني كما تخدع دابة !

* " اسم الله عليك يا حبيبى " .. العيب ليس فيك .. جميعنا صدقناهم وخُدعْنَا .. كنا أبسط من أن نحتاط !

- لكننى كنت حارسها !

* ونحن كنا ناسها وأصحابها .. وكانت هى عزوتنا والروح التى تتردد فى نفوسنا .. عشنا حولها لا ندرى ما يدور بعيداً عنها .. لا نتصور ما يعتمل فى نفوس الآخرين تجاهها .. اكتفينا بها ولم نطمع فى غيرها .. ظَنَنَّا الجميع مثلنا ولم نتخيل صدق نبوءات حراس البئر السابقين ..

- كانوا يخافون عليها من لعب الأطفال وهبات الريح .. يخافون عليها حتى من أنفسهم .. لم تُثنهم عن حراستها سخرية الجميع .. أما أنا فما أسهل ما خُدعْتُ ! وما أسرع ما صدقتُ ادعاءاتهم !

* لا تظلم نفسك يا ولدى .. لقد حاولتَ منع الجرافة من ردمها فأخذوك أنت وغيرك إلى أن تم كل شىء.

- ولما عدنا ووجدناها قد ردمت .. انفضضنا من حولها وجرينا نبحث عن الرزق بعيداً عنها كالبلهاء !

* لكنك تعود لتتسقط أخبارها كل حين .. لأنك مازلت تشعر أنك حارسها ..

- حارس عاجز .. مسدودة الطرق فى وجهه !

ربتت " شكور " على صدره

**" تحت وطأة الرمال محبوسة أنفاسك يا بئر صافورة .. تئنين .. تختنقين .. تستغيثين ونحن عنك منصرفون ! نلهث وراء الرزق .. ورزقنا أمام أعيننا مسلوب ! أتراك يا بئرنا مازلت تنتظرين عودة أحبابك ؟ "**

عادت " شكور " تُربِّت على كتفه .. أخذته من ذراعه فخضع كطفل مذنب .. أجلسته على الحصير أمامها .. القمر المحاق يتابعهم مستتراً بالليل والغيوم ..

* كان أبي رحمه الله لا يأمن أحداً على البئر .. حتى نحن كان يخاف منا ! وكان ينقل خيمته للأمام كل حين إذا حجبت البئرَ دارٌ جديدة .. لتبقى ـ دوماً ـ تحت عينيه .. ظل يحرسها في العراء حتى بعد أن شاخ وضعف .. يرقبها ويغلبه النعاس فينتفض مذعوراً مبسملاً .. يستعيذ بالله ولا يقصص رؤياه على أحد .. يمضي نحو البئر .. يُمَدِّدُ جسده بجوارها ويروح في غفوات قصار ..

– كان حارساً يقظاً ..

* ومثله أنت يا " رفاعي " .. طالما قلت لأمك أنك تذكرني بأبي .. كنت أناكدها وأقول لها : ولدي يشبه أبي ولايشبه أباكِ !

– ليس من صان كمن ضيع ..

* صان أبي البئر طيلة عمره .. صانها من شرٍ في رحم الغيب استشعرت روحُه سعيَه نحو البئر .. لكن الشر تلكأ في الانقضاض .. وقبل موته أوصى عليها زوجي .. وتلكأ الشر .. وراح زوجي دون أن يواجهه .. ولما نسينا هذا المتربص في رحم

الغيب انقض علينا فنكث غزلنا وبعثرنا .... لكننى كنت دوماً أقول عنك لأمك : ولدى يشبه أبى !

ويتمتم " رفاعي " : الجد صان والعم صان .. وليس من صان كمن ضيع !

**" نعم .. ليس من صان كمن ضيع .. وليس من استرد كمن ضيع .. وقد كان الفتى حلواً كالقمر .. أحبه أبى حين صَدَّقَ حبه للبشر .. ائتمنه عليها وسمح لنفسه بالنوم في الدار مادام الفتى الوضيء ساهراً يحرسها .. ولما كانوا يسألونه : كيف تأمن هذا الفتى الغرّ عليها ؟ كان يجيبهم : لو رأيتم قلبه ما سألتم ! وكنت أعرف قلبه .. أراه وأسمعه وأحتضنه في صدرى ويحس دفئه قلبى.. فهمتُ لم ميزه أبى لكننى لم أفهم م كان يحذره هامساً ! "**

= أبوك هج يارفاعى !

اندهش " رفاعي " .. ما الذى ذكر أمه بهروب أبيه وهى أصلاً لم تعترف بهروبه ؟ لماذا ينبش الناس قلوبهم باحثين عن اللوعة والألم؟ يستعذبون مصائبهم ويجترونها حارقين أنفسهم .. يتجرعون القهر كئوساً إذا سقاهم الدهر كأساً ..

**" تأسفين على رحيله يا أمى ؟ ودموعك التى كانت تذبحنى هل نسيتها ؟ تروحين وتجيئين في الدار .. تحملين في قلبك قهر الدنيا كلها .. وعلى وجهك الطيب العابس ترتسم علامات الإهانة والإحباط .. تؤدين دورك بكل أمانة ولا تجدين مقابل إخلاصك**

**حتى مجرد السكوت .. تلسعك كلماته المهينة .. ولا تعرفين غير التفاني في حمل التبعة .. صغيراً كنت أجرى وراء خطواتك المتعثرة .. تنهمر دموعي وأنا أرى الهم والغم يتدفقان من محياك .. تنفثين غضبك في القيام بواجباتك المنزلية .. فأزداد حزنا على حزن .. لماذا لاتتمردين ؟ لماذا تأصل بداخلك اليقين بأنك الأضعف والأهون؟ لماذا لا تردى لنا الصاع صاعين وتغلقين باب دارك في وجوهنا ؟ لماذا تظلين المأوى والملاذ ومصدر الخير والحياة لمن لم يعرف لك قدراً ؟ "**

* لم يهرب يا " زهرة " بل خرج مثل الجميع يجرى خلف رزقه !

= حين ردموا البئر فرد ريشه وطار .. جرؤ على تركى لما رآنى مقهورة لا حول لي ولا قوة .. تحجج بقطع رزقه هنا فخرج يبحث عنه حيث لا أدرى ..

* الكل خرج

= تزوج هناك ! وقال في داهية " زهرة " !

- ما الداعى لهذا الحديث الآن يا أمه ؟

- حين ضاعت البئر لم يُبْقِ أحد على شيء .. فلم يعد هناك ما يستحق الرعاية ! تعلم الناس كيف يتخلون ويهربون .. فرَّ من يريد الفرار وبقى من يحب البقاء .. الردم كان الحجة التى تحجج بها كل الهاربين ..

* وهل يفر أحد من أرضه وأكل عيشه ؟

= كان قد ملَّ ما لديه .. كل ما لديه .. حتى ( ... ) ! طمع

فيما هناك .. تطلع لدنيا جديدة ولرزق أوسع .. وقال أجرب حظى .. وانزرع هناك حيث ذهب .. وتناسى داره وناسه !

- ضياع البئر بعثرهم يا أمه ..

= هل تظنهم يعودون إذا عادت يا " رفاعى " ؟

**" يعودون ؟ ربما يعودون ! لكن .. حتى إذارجعوا جميعًا .. هل سيرجع ( هو ) ؟ قال لي : قليل من لا يعود من الحرب يا شكور ! ولم يعد .. أتراه يعود إذا عادت البئر؟ ولم لا ؟ البئر مباركة .. منها شرب الوليد المقدس وبمائها اغتسل .. ودعت أمه الطاهرة أن يبارك الله ماءها ويحفظها ويجعلها عونًا للضعفاء .. وظلت البئر تمنح خيرها وبركتها لكل المحتاجين .. وستحل بركتها على منقذيها .. وسيعود كل الغائبين .. ويعود الفتى حلوًا كالقمر .. لم تحنه السنون ولم يطفئ وضاءته الاغتراب "**

أجفلت " شكور " على صوت " رفاعى " الحاسم القوى :

- اسمعى يا أمه : من الغد - إن شاء الله - سأذهب !

انتفضت " زهرة " .. فيم جاء الولد وفيم سيذهب ؟

هرب أبوه وقالت : ربنا يعوضنى فى أولادى .. ومنذ أيام عاد الولد قائلاً : لا تحملى همًا .. سأبقى معك ولن أسافر .. رَبٌّ هنا ربٌّ هناك .. وسندبر حياتنا ! وهاهو يهرب أيضًا .. ابن أبيه .. والعرق دساس .. صرخت :

= مع السلامة ! الحق بأبيك ! لن أتسول الحنان منكم !

قامت تتعثر في جلبابها .. تجذبه من تحت قدمها بعصبية .. ينخلع نعلها ويطير بعيداً .. تبرطم ساخطة .. تتخبط في مشيتها الخرقاء .. وتلعن ناساً وأياماً وحظًّا أسود !

* لا تزعل يا " رفاعى " .. أمك طيبة ..

- أعرف أنها طيبة .. ولو لحقت بها الآن لوجدتها في الدار تبكي لأنها أغضبتني !

* الْحَقْ بها إذن وطيِّب خاطرها .

- خالة " شكور " .. في أثناء غيابي ستهتمين بها .. أليس كذلك ؟ لا أحد سيحتملها غيرك !

* أيُّ غياب ؟

= غيبة لن تطول .. لكنها لازمة ! ادعى لي ياخالة !

* داعية لك يا ولدى .. وأمك في " نن " عيني !

ربتت على صدره العريض .. مسحت وجهه بنظراتها الرءوم ..

* لا تغب ياابن الغالية .. ياأول فرحتي ..

**" لما غاب الفتى .. وانقفل باب الدار عليّ .. لم تغب عني صورته .. مُلقى في رمال الأرض البعيدة .. نازفة دماؤه .. يلتقط قلبي نداءه الأخير .. محتاج هو إلي .. محتاج لمس كفي على جبينه .. محتاج أن يقفل عينيه على رؤياى .. محتاجة أن أحتويه في صدرى وأغسل جسده بدموعي وأعود به ليظل بقربي .. هنا .. في صالورة ! النافذة .. الحصير .. أكواب الشاى .. الفراش .. ملابسه في الصندوق .. أشياؤه كلها لن تقابله ثانية ! أظلمت**

**الدار وعشش الحزن فيها .. والتحفت الأيام وأنا مكومة .. لا أطيق أن أسمع صوتًا .. لا أطيق أن أرى أحدًا .. إلى أن أيقظني المبشر من غفوتي .. فَجَرَيْتُ إلى دار الحبيبة .. تلقيتك وليدًا على يدى .. تنزَّلْتَ أول ما تنزلت على قلبي .. قطعة من حشاش الروح .. "**

- خالة " شكور " .. اعتنى بالدور .. ولا تدعى الخراب يعشش في أى بيت من بيوت " صافورة " !

* ليلة مولدك جاءتنى الرؤيا .. زارنى الغالى فى المنام وقال لى : سأرسل لك " رفاعى " ليشيل همك ..

جريتُ إلى أمك فتلقيتك وليداً على كفيّ .. قلت لها : هو "رفاعى" ! رفضت وزمجرت وثارت ثم أسمتك : " رفاعى " ! وبعد سنوات حين قَبَضْتَ بكفك على رأس الثعبان الكامن بشق جدار بيتى .. قلتُ : قد صدقت رؤياى وتحققت البشارة . فالحبيب لم يكذبنى أبداً !

وانصرف " رفاعى " !

وبقيت " شكور " تتأمل ضوء النجمات العابثات الذى ما زال يضطرم ويخبو ساخراً .. وتفكر فى فتى كان يبقى معها إذا ذهب الجميع .. يحنو عليها إذا قست الدنيا .. يحدثها حين تخرس الألسن .. ويطمئنها إذا انفطر القلب فزعا ..

**" لكنه راح .. ضـيـعـوه .. قلت له من أول يوم : أخاف أن**

يضيعوك ! سألته أن يدلني عليهم .. فرفض .. لم يعرّفني طريقهم.. لم يذكر لي أسماءهم .. قال ستعرفينهم حين ترينهم ! ولم أعرفهم في كل الوجوه التي رأيتها .. عشرات ومئات تزدحم بهم ساحة البئر كل شهر .. أبحث فيهم ولا يهديني قلبي إليهم .. شهور وشهور وسنوات طوال .. أبحث في وجوه كل الوافدين ولا أجد ثأرك لديهم ! أين هم يا حبة القلب ؟ أما كان عليك أن تخبرني ؟ ألم تكن تعرف أنني سأتعذب بحثًا عنهم ؟ كنت تعرف كل ما يسوؤني قبل أن يمسني .. تبعده .. تطارده .. تحميني بذراعيك وحبك وحياتك .. فلِمَ تركتني لعذاب الحيرة هكذا ؟ "

# الفصل الرابع

# المشهد الأول

تحت واحدة من الأشجار الغريبة .. التي جِيء بها كبيرة نامية .. لتغرس في أرض لم تحتضن يوماً بذرتها النابتة .. ولم ترضعها حليب أمومتها ..

تحت واحدة من الأشجار الشاذة النافرة الحمقاء التي احتلت ساحة بئر "صافورة" وأخذت تطل على المكان بتحفز وتوعد.. جلس "عليّ" و"برهان" .. كلٌ يلتمس في الآخر صديقًا كان.. كلٌ يحاول إحياء ذكريات مرت وعبرت بوابة الماضي وماعاد سبيل لإخراجها !

" علي " يدرك أن " برهان " يريد مفاتحته في أمر مهم .. فها هو يتصنع المرح .. وينقر المنضدة بأطراف أصابعه .. ويخبط الأرض بمقدمة حذائه .. ويهز رأسه متظاهرا بالاهتمام بما يقوله رفيقه .. هذه جميعها أعراض لحالة يعرفها " علي " جيداً ..

يوم وقَّع " برهان " عقد بيع شقته التي كانا يقيمان فيها معا.. والتي عرض عليه " عليّ " أن يشتريها منه .. جاءه يضحك ويتصنع المرح وينقر بأصابعه المائدة ويدق الأرض بمقدمة حذائه ويهز رأسه متجاوبًا !

**" ـ لقد بعتُ الشقة !**

**= بعتها ؟! لِمَ يا " برهان " ؟ ألم أعرض عليك شراءها ؟**

**ـ السعر كان مغريًا جدًا !**

**= لكننا اتفقنا وكان من واجبك أن تعرض الأمر عليّ .. كنت سأشترى منك ..**

**ـ لا .. لا .. لم يكن في طاقتك .. أنا أعلم .. اعذرني يا "علي" ! "**

وحمل " عليٌ " أشياءه .. ملابسه وسريره .. مكتبه وكتبه .. وصورة الزعيم التى كانت ( آنذاك ) معلقة فى حجرته ! عشر سنوات وهو يقيم في شقة " برهان " .. يدفع له إيجارها كل شهر بدون أن يعقدا للإيجار عقداً .. سنوات الجامعة الخمس .. وفترة التجنيد .. وأربع سنوات من العمل فى شركة المقاولات .. عشر سنوات نسج الود والامتزاج خيوطهما بينه وبين كل ما حوله .. هذا الشباك المطل على المنور : اعتاد سماع الأصوات التى تصله من خلاله والتى صارت حميمة بتعاقب الأيام .. اعتاد روائح الطبخ التى تهب عليه منه .. أطفال الجيران الذين شبُّوا وشبابهم الذين صاروا كهولاً .. يتبرد القلب بمقابلتهم على السلم طالعين نازلين.. يشعر أنه بين ناسه .. وهذه الجدران برائحتها الجيرية الرطبة قد أدمنها .. وأصوات رواد المقهى الواقع أسفل العمارة ألفها .. هى هى كل يوم .. عرف أسماءهم .. كل يوم وهو خارج لا يكف عن إلقاء التحيات .. ألفَ الناس وألفُوه .. اعتاد انبعاجات الشارع وحفره .. لكنه اضطر للرحيل .. فقد باع " برهان" المأوى

والعشرة ! حمل أشياءه وذهب .. وتجرع الاغتراب في مسكنه الجديد .. وتراكمت معاناته حتى بدأ يألف رائحة شقته الجديدة وينسج خيوط التواد بينه وبين عالمه الجديد ..

**" ما أكثر المرات التي دَقَقْتَ فيها الموائد بأصابعك وخبطتَ الأرض بمقدمة حذائك يا برهان !"**

شقشقات طيور الحديقة .. المتقافزة على الأشجار النافرة التي طوقت ساحة بئر " صافورة " .. والتي غُرِسَتْ وأينعت وأزهرت في أسابيع قليلة عن عمدٍ وترصد .. تصنع موسيقى توائم المشهد .. وتمهد لما سوف يتطور من الأحداث ..

شقشقاتها ليست أبداً كشقشقة العصافير الأخرى الغبراء الأصيلة المتقافزة على الشجرة صاحبة الأرض .. الشجرة التي نبتت ونمت وأورقت وأينعت دون استعجال .. " شجرة رفاعي " التي رضعت من رحيق أرضها الأم وأطعمت طيورها الغبراء عشقها فأحبتها الطيور ولم ترض عنها بديلا .. وصارت تشدو لها بشقشقات الحب العذبة .. وتمرح فوق أغصانها وتتوارى عن الأعين باغبرار لونها !

ربما كان لون الطيور التي سكنت الأشجار الجديدة أزهى وريشها ألمع .. لكن شقشقاتها جوفاء .. خالية منَ العذوبة .. تماماً كصوت " برهان " الذي صار أجوف رغم غلظته .. رغم لهجته المسرحية .. ورغم تهدجه الذي كان يفتعله إلى أن أصبح عادة

لازمته .. تلون صوته وتلوى وتأثر زُوراً حتى فقد صدقه ..

**" كم كان صوتك حميماً يا برهان "**

عادت طرقات الأصابع القلقة .. تُوَقِّعُ لشقشقات الطيور الجوفاء ..

والنخلات الباسقات المهندسات تبدو وكأنها صورٌ لنخلات حقيقية ..

والنجيل المنتظم الممتد على الأرض التى اصْطُنِعَ لها وهاد وهضاب .. يشى انتظامه بأنه جزء من " ديكور " مصطنع لمشهد تمثيلى !

كل هذه البنايات .. والأشجار .. والملاعب .. والأحواض .. تمثيل فى تمثيل .. والجميع ممثلون .. وحين ينتهى العرض سيُرْفع كل هذا !

- هذا السور يا " على " .....

**" لماذا لا تُكْمِلُ يا برهان ؟ مم تخاف ؟ "**

- لقد قررنا تعديل السور المتعرج يا " على" .. سيسير فى خط منحن منتظم !

= كيف يسير فى خط منحن منتظم ؟ وبيوت الناس الواقعة خلفه ؟

- سنشتريها منهم !

= لِمَ تتحدث بضمير المتكلم يا " برهان " ؟

- سيشترونها يا " على " .. سنشتريها .. ماذا تعنى " **الضمائر** " ؟!

= لم تعد " **الضمائر** " تعني شيئًا .. صدقت !

- المهم أن القرار اتخذ بضم تلك البيوت .. ليتم حفر بئر ثانية فيها .. المنطقة تسبح على بحيرة من الماء العذب !

= احفروها هناك .. في الجهة الخالية .. توسعوا بعيداً عن بيوتهم !

- في الجهات الأخرى لا توجد مشكلة في التوسع .. المشكلة هنا .. في هذه الجهة .. نريد أن نطمئن على مصالحنا فيها .. فسكان " صافورة " حين يُفْتَتَحُ المنتجع وينجح ويجذب الأثرياء .. سيعودون كالجراد ليتطفلوا ويتسولوا ويحتالوا ليكون لهم نصيب فى الخير .. ولا أحد يدرى إلى أين سيذهب بهم الطمع بعد أن تصبح لبيوتهم قيمة ! قد يكيدون لنا .. أقصد لأصحاب المنتجع .. وقد يبيعونها للمنافسين الذين سيحومون بعد أن تصبح المنطقة منطقة جذب !

= هل تتكلم جادا ؟

- بالطبع ! ألا تدرك أن .....

= تخافون على المكان الذى لم تعيشوا فيه ولم تجبروه ولم تألفوه ولم تكن لكم فيه ذكرى وتتجاهلون - بدءا وانتهاءً - كل ذلك عند أهل " صافورة " ؟

- نحن على استعداد لتعويضهم ليشتروا منازل في أى بلدة أخرى .. منازل حديثة .. واسعة ..

= ستعوضون الجميع ؟ أم ستعوضون من بقى منهم فقط ؟

- سيكون هناك تفاهم على هذا كله !

= إذن لاتنسوا يا " برهان " أن تعوضوهم أيضًا عن ذكرياتهم ليشتروا ذكريات جديدة .. وعن شملهم الذى بعثرتموه .. وعن اطمئنانهم المروَّع ليستطيعوا شراء بدائل لهذا كله !

- " على " ! لقد رحلوا بالفعل .. ولم يبق منهم إلا قليل سندفع لهم ويرحلون .. والبلاد كثيرة .. إذا تفرقوا فيها لن يضج منهم أحد .. بالعكس هناك كثيرٌ من أمثالك الذين قد يشفقون عليهم ويرحبون بهم !

" نفرٌ منهم فى كل بلدة ..

والبلاد كثيرة ..

وحياة ستطحن الوافدين الغرباء بخشونتها .. وقسوتها .. ينشغلون في إيجاد مكان لهم بين أيامها .. فى العثور على مأوى في زحامها .. ومعاناة قد تصهر كل أمل لهم فى العودة .. ويمر الوقت ويفعل الزمن فعله .. وتخبو الذكريات .. وينطفئ الحنين..

و...... "

= ماذا تريد منى يا " برهان " ؟

أنت تعرفهم يا " على " و . . .

= آه .. نعم .. تريدنى ملعقة تطعمك حقهم ! فأقنعهم أن يقبضوا ويتركلوا على الله ويرحلوا !

- بك أو بدونك سيرحلون .. لكنى أريدك أن تتفاوض أنت

معهم لتطمئن عليهم وعلى مناسبة مبالغ التعويضات التى ستدفع لهم والتى ستقدرها بنفسك .. هم يثقون بك وأنت تحبهم .. وتَذَكَّرْ دائماً أن رحيلهم سيتم بك أو بدونك !

**" وتنجرف قدمي .. وأسْقُطُ مثلك يابرهان .. وأعيش أدارى قذارتى .. وأغالط .. وأدعى أننى ما فَرَّطْتُ .. وأن لكل عصر طريقته .. ويجرنى التفريط للكذب .. والكذب للخيانة .. والخيانة للرضوخ .... بك أو بدونك سيتم الأمر ! كم مرة تقيأت استسلامك هذا يا برهان ؟ "**

- ماذا قلت يا على ؟

= قلت سأسافر غداً !

- تسافر غداً !! إلى أين ؟

**" ما أكثر البيوت المهجورة .. الصامتة .. وما أسهل خنق الصامتين !! "**

- يا باشمهندس.

انتبه " على " للصوت المنادى .. صاح بالواقف على باب السور :

= أدخلها.

أطلت " شكور " مذهولة .. خطت بتردد .. تخشى أن تفسد الخضرة المبسوطة على الأرض .. توقفت ثم انحنت لتلمس بأناملها

النجيل المنتظم .. تحاول أن تصدقه .. فى المكان شئ كاذب .. شاذ .. تتأمل النخيل والشجر .. تنصت لأصوات العصافير .. تبتسم محتارة حين يصافحها " عليّ " .. تشير لما حولها ولا تنطق .. تقع عيناها على " شجرة رفاعى " .. يندهش " عليّ " لبقاء الشجرة .. كيف فاتهم اقتلاعها ؟

= شجرتكم يا خالة " شكور " .

* نعم يا ولدى ..

تتلألأ الابتسامة الحميمة على وجهها الوضاح .. فقد تعرفت على المكان .. رغم الثوب الشائه الذى ألبسوه له !

* جئت لأطمئن عليكَ .. عدة أيام مرت ولم أركْ ..

= كنت سأمر عليكِ غداً قبل سفرى .

* ستسافر ؟

= نعم .. سفر قصير .

* " رفاعى " أيضاً قال ذلك .. وأنت يا ولدى ألن تـ ...

**" ستعرفينهم حين ترينهم "**

**" نعم .. كنت دائماً تشعر بى قبل أن أشعر أنا بنفسى .. كنت تعرف أننى سأعرفهم ! "**

تتبع " عليّ " اتجاه النظرات المتقدة لـ " شكور " التى انقطع حديثها فجأة .. فوجدها مصوبة نحو بعض الجالسين تحت واحدة من الشجرات المتضخمة الغبية .. انقطع صوتها .. انسحبت الدماء من وجنتيها المتوردتين .. ارتعشت شفتاها وتصلبت

أطرافها .. تزاحمت الدموع فى عينيها وانفرطت حبات العرق
تنحدر على وجهها الشاحب وهى تتمتم بكلمات عن : غائب ..
وبشارة .. وفتى كالقمر راح ولم يعد .....

# المشهد الأخير

في منزل " شكور " الحجرى ..
وعلى نفس الفراش الذى كان المرضى يرقدون عليه
وتحت النافذة التى يطل القمر منها ..
رقدت " شكور " !

عيناها الذابلتان تنظران إلى " زهرة " .. تلتمسان منها عونًا .. ترجوان مساعدة.. لكن "زهرة" تبكى عاجزةً عن قراءة ما فيهما.. تنفرط دموعها فتبلل وجه الراقدة ..

**" إلا أنت يا " شكور " .. من لى بعدك ؟ من لرفاعي ؟ من يرش الصبرَ على القهر الذى نتجرعه كل يوم وكل ساعة ؟ "**

دموع " زهرة " المتساقطة على وجه " شكور " .. توقظ بعضًا من وعيها الغائب .. فترفع يدها الواهنة وتمسح وجنتها .. تلتقط "زهرة " اليد الحبيبة .. تلثمها .. تلصق وجهها بوجه " شكور " :

= كلمينى يا اختي .. فضفضى ..

الهلال المتعرج يشق السماء السوداء على استحياء ..

تستجديه العينان الواهنتان ماضيا كان .. فتتكاثف طبقات الأسى حجبًا للملامح الودودة ..

على السرير تقبع حبيباتها الصغيرات .. يرقبن ضعفها .. تمتلئ عيونهن عطفًا .. يتطلعن نحو الكبار حولهن:

" **ألا تستطيعون شيئا ؟ كيف تكونون كبارًا ولا تستطيعون ؟** "

في جـــوف الليل .. تندفع " نرجس " الواصلة توًّا إلى "صافورة" .. تمرق من باب الحجرة المفتوح .. تلقى سبتها وتنطلق نحو حبيبتها الراقدة :

- مالك يا اختى ؟

تستبشر " زهرة " لمجيئها .. فتنبت على وجهها ابتسامة نادرة.. تربت على ظهرها وهى منكفئة تحتضن " شكور " وتبكى..

- ستحل البركة بمجيئك يا " نرجس " ..

تتعانقان في نشيج مرير .. وعينا " شكور " الذابلتان ترسلان نظرات الود ..

الطفلات الصغيرات نهضن .. وقفن على السرير منفعلات .. تألق الأمل في عيونهن الجميلة .. منذ أرسلت الخالة " زهرة " في طلب الخالة " نرجس " وهُنَّ يظنن أن الشفاء سيحل بقدومها .. كن يُقَسِّمْن أنفسهن فرقًا لرصد العائدين .. يرحن ويجئن في الطريق .. يرقبن كل قادم .. تكثر استنتاجاتهن قبل أن تتضح الملامح ..

= هى ..

- لا .. الخالة " نرجس " أطول !

= أقول لكِ هى !

- هذا ليس ثوبها !

= اشترت ثوبًا جديدًا !

- ليست هى ..

= بل هى ..

قدومها هو " البركة " التى ينتظرن حلولها ..

هكذا قـــيـل .. لكنهن اندهشن لدمـــوع الخـــالتين :
"نرجس " و" زهرة " ! أفزعهن العجز وقلة الحيلة اللذان رصدنهما على ملامحهما ..

## " لم إذن كنا ننتظر الخالة " نرجس ؟ "

- بالأمس زارها طبيب آخر .. كل الذين فزعوا إلى " صافورة " حين علموا بمرضها .. يأتون معهم بالأطباء ..

علب الدواء مرصوصة فى صينية ألمونيوم قديمة على المخدة بجوارها .. أقزام عاجزة تختبئ خلف أغلفتها الورقية الملونة .. لا تمنح بركة ولا تقدر على شفاء ..

= ألم يظهر أى تحسن ؟

- بل تزداد ضـعـفـا .. لم تعد تقدر حتى على الجلوس بمفردها .. " شكور " التى كانت تملأ الدنيا نشاطًا لم تعد .....

الدموع تخنق الكلمات .. القلوب منقبضة .. واليأس بحر "غريق" سقطوا فيه حتى قاعه .. الأصداغ على الأكف .. والجذوع

تميل يمينا ويسارا ..

متجمعون حولها تجمُّعهم حول مُحْتَضَر !

= منذ زارت المهندس " على " وراء السور وهى على هذه الحال ..

" نرجس " القابعة عند رأس " شكور " تتطلع للآخرين بعينين محتقنتين لا تكفان عن البكاء .. تلتقط جوارحها كل ما يقال .. تحاول أن تجد سببًا لانهيار " شكور "

**" آه لو كنت معك ! ملعونة الدنيا ! تركتك ولم أدرك قسوة هذا عليك .. انشغلت عنك بالعيال والغربة ومسايسة الحياة البغيضة "**

= ظلت حتى الصباح تهذى .. وتذكر زوجها وأباها .. وتقول : رأيتهم .. عرفتهم ! تفتح عينيها على وسعهما وترفض النوم .. وتحكى لكل من يطل فى وجهها عن البشارة التى صدقت !

أمام الدار يجلس الجميع واجمين ..

لا يبرحون أماكنهم إلا لتناول ما " يقوتهم " .. ثم يلسعهم القلق فيهرولون عائدين لمرابضهم أمام دار " شكور " التى حرق مرضها قلوبهم ..

ما خطر ببالهم أن تمرض !

ظنوها أكبر من هذا ..

تخيلوا أن لها حراسا غير مرئيين سيحمونها ويدفعون عنها الخطر .. لم يحسبُوا يومًا كمَّ الألم المخبوء فى قلبها ..

فهى " شكور " ..

الملاذ فى الأحزان والصمود فى الملمات .. يجرى إليها الجميع .. يفرغون همومهم .. يتزودون بالصبر والقوة

لم يخطر ببالهم يومًا أنها قد تمرض .. قد تسقط .. قد تحتاجهم .. لسبب بديهى ! أنها هى : " شكور " !

الصغار مأخوذون بما يحدث ..

ورغم حزنهم على الخالة " شكور " إلا أن مرضها أرضى شيئًا فى نفوسهم !

فقد انبعثت الحياة فى " صافورة " من جديد !

وصارت ملهاتهم المفضلة أن يرقبوا الطريق .. ثم يطيرون إلى الرابضين أمام الدار .. يبشرونهم بأسماء العائدين الجدد .. يرقبون بوجوههم المتوردة وجباههم اللامعة فرحة اللقاءات وحرقة الأسى على الخالة شكور .. يسيرون خلف العائدين حتى دورهم .. يسمعون صوت فتح الأبواب التى طال انغلاقها .. يبتهجون للنور المتراقص الذى صار ينسكب من نوافذ البيوت فيفرش الحارات بمستطيلات وضاءة .. يروحون ويجيئون فى الليل دون خوف .. فالأبواب المغلقة التى كانوا يخافون ما وراءها قد فُتحت وانبعثت منها نفحات الود !

الحزن يهزم " نرجس " دومًا .. وكلما ألحت فى كبح دموعها كلما جاءت انفجاراتها الباكية أعنف .. كيف تركَتْ " شكور " ؟ وكيف مرت الشهور دون أن تزورها ؟

**"- من سيبيت عند من الليلة ؟**

*** تعـالى أنت يا نرجس .. فـقـلبى لا يطاوعنى على تـرك أبى ثلاث ليال متتالية ..**

**- وهل يبيتُ أبوكِ فى داره ؟ إنه يبيت بجوار البئر حتى لا يأتى لص ويحملها على كتفه ويهرب !**

*** لكنه يحسب أوقات غيابى عن الدار ويأسى لها ولا يصرح "**

تنهال الدموع غزيرة ..

تلصق " نرجس " وجـهـهـا بوجـه " شكور " و " تنهنه " فى حنان .. يأخذونها بعيداً فتعود سريعًا .. وفى قلبها مغروز خنجر الإحساس بالذنب ..

**" لو كنت معكِ لفهمتُ ما جرى .. لكننى بعدتُ .. هانت علىّ العشرة وبعدت .. وقلت : نفسى " !**

عينا " شكور " الذابلتان معلقتان بسماء " صافورة " ..

ترنوان إلى هلالها الذى يكتنز يوماً بعد يوم ..

ما زالت تحب قمر " صافورة " رغم عجزه !

نسمات الليل تدفع مصراع النافذة فيتوارى الهلال خلفها .. يتكرس الأسى والعجز فى قلبها .. تمتد يد " نرجس " بدون اتفاق لتفتحه .. هى أيضًا تحب ليل " صافورة " وقمرها الطفل الذى ينمو فى حضن السماء يومًا بعد يوم .. ما عادت عينا " شكور " تتطلعان لشىء إلا للسماء .. ترقبان قمرها الذى ينزل ضوؤه على

روحها بلسماً فتهدأ .. وتلين أطرافها المتصلبة .. وينبسط وجهها المروّع .. وتنساب إليها الذكريات رائعة حلوة .. فتنام .. لكن سرعان ما يشيخ الليل .. ويقتحم النهارُ أعطافَه اللينات .. ويطعن " شكور " بذكرى النهار الأخير ..

**"بينى وبينهم أمتار ولا تطولهم يداى.. ويظل ثأرك ناراً تتقد فى قلبى.. يستظلون ويتريضون.. يتبردون بماء البئر.. أزاحوك وزحفوا إليه.. مَدُّوا فيه أيديهم الدنسة.. ثم ضحكوا ملء أشداقهم! وأنا هنا.. بينى وبينهم أمتار.. وثأرك نار فى صدرى....."**

وتنتفض " شكور " .. يحتقن وجهها الشاحب .. تشير بيدها المتصلبة جهة البئر .. يتعثر لسانها العاجز فى حروف ثقيلة لا تتزحزح .. يسعفونها بقرص .. تطيح به .. تطيح بكوب الماء .. تزم شفتيها .. تنطرح مهدودة منهارة ..

الكل يعرف دواءها !

والكل يدعى الجهل !

ضرب العجز حصاره على الألسنة بعدما حاصر الأيدى !

الممر الضيق الفاصل بين دار " شكور " والسور امتلأ بالعائدين .. الذين فاض زحامهم فتدفقوا فى باقى حوارى "صافورة" وشقوقها .. عادت عروق البلدة تنبض بالحياة .. واندفع تيار الأحبة يزيح وطأة الموات .. واستفاقت نسمات الأرض الثكلى بعودة بنيها وأحباء بنيها ..

الضابط " محيى " يلازم باب الدار ..

**" أتكون أسطورتهم حقيقة ؟ أزمنة طويلة صَدَقَتْ فيها الأسطورة .. لماذا سَلمتُ أنا بكذبها ؟ لماذا صدقت من لم يعيشوا هنا وكذبت أصحاب المكان ؟ لماذا فرضت نفسى على شأن ليس لى ؟ قلبى يحدثنى أنه لا شفاء لشكور إلا بها .. لكن ..... "**

– لن أسامح نفسى إذا .....

ينتبه " محيى " لتمتمات " على "

= وما ذنبك أنت ؟

– الذنب كله ذنبى .. لست إلا شيطانا أخرس !

فرق الرصد جاءت تجرى لتبشر بالقادم الجديد :

= عم رفاعى .. عم رفاعى

اقتحم " رفاعى " الزحام حول " دار " شكور " ..

الطريق ينفسح أمامه ..

تماماً مثلما كان ينفسح حين يستدعيه اهل " صافورة " لإخراج ثعبان كامن بين أحجار بيوتهم .. نفس هذا التصميم كان يلوح من عينيه .. نفس هذا الثبات فى الخطو .. نفس المهابة والشجاعة .. وبعد أن يحبس الثعبان فى جرابه .. يعود كما كان : " رفاعى " .. الوادع .. الهادئ .. لين العريكة .. ويسأله أصحابه عما ينتابه حين يذهب لإخراج الثعابين فيجيبهم :

- ضعف الإنسان يستثير قوتهم .. وماهم بأقوياء .. هاجموهم بقوة لتروا كيف يتراجعون بجبن !

يشق " رفاعى " الزحام ..

يدخل الدار ..

يمرق إلى غرفة " شكور " ..

يركع بجوار فراشها .. يضع كفه فوق جبينها .. يطل فى عينيها ..

يندفع الذين مرقوا وراءه ليحكوا له ما حدث ..

يتطلع بنفور للدواء المرصوص ..

يحتوى يدها بين كفيه .. يبتسم لها .. تختلج شفتاها ..

يهمس فى أذنها .. تبتسم .. ينهض .. يهم بالخروج

يسأله الزحام من حوله :

– أذاهب أنت إلى هناك ؟

تتأمله " شكور " فإذا هو فتى حلوٌ كالقمر !

يخرج .. فيخرج الجميع وراءه !

تمت

مارس ٢٠٠٢

# من قائمة الإصدارات الأدبية

| | | | |
|---|---|---|---|
| ليلة العشق والدم | إبراهيم عبد المجيد | مرسى ديله | عبد الفتاح البشتى |
| حمدان طليقا | أحمد عمر شاهين | ليس هناك ما يبهج | عبده خال |
| ملاعيب الأكابر | أحمد الشيخ | لا أحد | عبده خال |
| سريب | أحمد الفيتورى | آخر ما قاله النهر | عز الدين الأسوانى |
| وقائع غرق السفينة | إدريس علي | صنعيدي صنع | د. عزة عزت |
| واحد ضد الجميع | إدريس علي | سراديب | عفاف السيد |
| المبعدون | إدريس علي | إينارو | د. علي فهمي خشيم |
| طريق النسر | إدوار الخراط | تحولات الجحش الذهبي | ترجمة : د. علي فهمي خشيم |
| صخور السماء | إدوار الخراط | جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا) | د. فاروق أوهان |
| تباريح الوقائع والجنون | إدوار الخراط | البحر يغرق | د. فاروق أوهان |
| مخلوقات الأشواق الطائرة | إدوار الخراط | وجهها وطن | فاطمة يوسف العلي |
| الهيش | أشرف العوضي | تاء مربوطة | فاطمة يوسف العلي |
| حذاء السيد المنسى | أشرف العوضي | شفيقة .. وسرها الباتع | فؤاد قنديل |
| همس العاشقين | أمين بكير | الحمامة البرية | فؤاد قنديل |
| حكايات من دفاتر النسوان | أمين بكير | لبلاد طلبت أهلها | فيصل سليم التلاوى |
| ألم يخلقها الله امرأة | أمين العزب | يوميات عابر سبيل | فيصل سليم التلاوى |
| أشياء خاصة جدا | أمينة العمادى | وتر مشدود | قاسم مسعد عليوة |
| دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢) | جمال الغيطاني | خبرات أنثوية | قاسم مسعد عليوة |
| مطربة الغروب | جمال الغيطاني | أمير المدينة | ماهر أبو السعود |
| تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص | د. جمال التلاوي | حكاية ليلة طويلة | ماهر أبو السعود |
| المتعبون | جمعة محمد جمعة | الفتيت المبعثر | محسن الرملى |
| يومية هروب | خيرى عبد الجواد | الينا الشرقية | محمد جبريل |
| مسالك الأحبة | خيري عبد الجواد | مد الموج | محمد جبريل |
| العاشق والمعشوق | خيري عبد الجواد | طوفان النار | محمد حافظ صالح |
| الحدود | رأفت سليم | هذيان | د. محمد حسن غانم |
| اركبوا دراجاتكم | رحب سعد السيد | كل الأشياء الجميلة تنهار | د. محمد حسن غانم |
| سيرة عزبة الجسر | سعد الدين حسن | عبور الميدان ظهرا | محمد سليمان |
| شجرة الخلد | سعد القرش | تل المعافرة | محمد شاكر |
| شهقة | سعيد بكر | مدفع الأب عياش | محمد صدقى |
| أيام هند | سيد الوكيل | أشياء لا تموت | محمد صفوت |
| كف مريم | سعيد سالم | وداع لم يتم | محمد صفوت |
| الممنوع من السفر | شوقي عبد الحميد | الحاج | محمد عبد السلام العمرى |
| أيام الغربة الأخيرة | صالح سعد | بعد صلاة الجمعة | محمد عبد السلام العمرى |
| دردفين | عاشور الطويسى | هالة النور | محمد العشرى |
| الأميرة | د. عبد الرحيم صديق | تفاحة الصحراء | محمد العشرى |
| [illegible] | د. عبد الرحيم صديق | صدقني لأنني أكذب | محمد علي سعد |

| | | | |
|---|---|---|---|
| جبال من رمل | محمد علي سعد | أنا السلطان | د. مجدي إبراهيم |
| لوحة ممنوع | محمد علي سعد | البئر | نجلاء محمود محرم |
| الحواس | ترجمة محمد عيد إبراهيم | لأنك لم تعرفي زمن افتقادك | نجلاء محمود محرم |
| حريم .. (أعزكم الله) | محمد الغربي عمران | قمر أخضر | نهلة السوسو |
| ضمائر في قفص الاتهام | محمد فتحي | ديسمبر الداخلي | هدى جاد |
| الرقص في أكفان الموتى | محمد فتحي | أيام زمان – أين أنت ؟ | د. هشام قاسم |
| الخروج إلي النبع | محمد قطب | خلف النهاية بقليل | وحيد الطويلة |
| رشفات من قهوتي الساخنة | محمد محي الدين | وانهار الدب الأحمر | ياسر عبد التواب |
| يا عم يا جمّال | محمد الناصر | قرد حمام | يوسف فاخوري |
| الحياة الثروة | د. محمد نعيم شريف | أنا كنده (قصص قصيرة) | ت : رزق أحمد |
| أرتيكاريا العسكريتاريا | محمد يوسف | تحولات الجحش الذهبي (رواية) | ت : د. علي فهمي خشيم |
| الحبيب المجنون | د. محمود دهموش | إني على حبك باقية (شعر) | ت : فيصل الياسري |
| فندق بدون نجوم | د. محمود دهموش | دون كيشوت طليقاً (مسرحية) | ت فيصل الياسري |
| إنسان (رواية فلسفية) | محمود القمحاوي | المنعطف (مسرحية) | ت فيصل الياسري |
| الحياة مفرد مؤنث | محمود قاسم | الحواس | ت : محمد عيد إبراهيم |
| اختزال في المسافة والسفر | محمود الورواري | الهايكو - رحلة حج بوذية (شعر ياباني) | ت : محمد عيد إبراهيم |
| احترس السيارة تعود للخلف | المقداد محمود | شجرة مطر (قصص قصيرة) | ت محمد عيد إبراهيم |
| أعوام في رجال ألمع | ممدوح القديري | نهايات (شعر) (حائزة لجائزة نوبل ١٩٩٢م) | ت : محمد عيد إبراهيم |
| أيام في شتاء القاهرة | ممدوح القديري | الخلاص بالحرية (مقالات في الأدب..) | ت محمد عيد إبراهيم |
| الحنين إلى النسيان | ممدوح القديري | زهرة صيف | ت نجاح سفر |
| الضياع وجيل الأوهام | ممدوح القديري | هذه الليلة الطويلة | د. أحمد صدقي الدجاني |
| الهبوط إلى الجنون | ممدوح القديري | الدمية والدم | أنور عبد المغيث |
| الهروب مع الوطن | ممدوح القديري | قرقوش والأراجوز والحرطوش | السيد حافظ |
| فوق لهيب الشموع | ممدوح القديري | الأمل الخالد | د. شوقي سعد |
| ثلاث حقائب للسفر | مي برس | الشاعر والحرامي | عزت الحريري |
| دم الأبنوس | ناجي الشكري | دون كيشوت طليقاً | ترجمة فيصل الياسري |
| ويصدأ ماء النهر | ناصر الهلالي | المنعطف | ترجمة فيصل الياسري |
| زهرة صيف | ترجمة نجاح سفر | دنانير من ذهب | فيصل الياسري |
| حافة الفردوس | نبيل عبد الحميد | عريس لبنت السلطان | محفوظ عبد الرحمن |
| الدائرة | د. مجدي إبراهيم | الشطار التاج (مسرحية شعرية) | محمد أحمد حمد |
| حكايات مصرية | د. مجدي إبراهيم | اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية) | محمد الفارس |

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

- كنت أضيق بوحدتي في دار أبي .. أستأذنه
لأذهب إلى "نرجس" .. تبهجني الوجوه الكثيرة هناك ..
والأصوات المتداخلة .. والصحبة الدائمة .. أجري في
الدار الرحبة وألعب وأضحك .. ثم أتذكر دارنا الضيقة ..
وحصير بابنا المشقوق .. فأشتاق لأبي الجالس فيها
وحيدا .. يتطاير احتفائي بما لدى "نرجس" .. أقطع
المسافة حتى دارنا وأنا ألوم نفسي .. وأصل ..
وأجد أبي في مكانه أمام الدار يتطلع للبئر .. ينتبه
وقع خطواتي لعودتي فتملأ الابتسامة وجهه الطيب ..
يمسح الحصير بكفه مزيلا عنه الغبار لأجلس بجواره ..
يضمني بساعده فأكتشف أن دارنا وصمت أبي وبابنا
المشقوق أحلى ألف مرة مما لدى "نرجس" !

